فلسفة الجد والهزل

لأبي عثمان

عمرو بن بحر الجاحظ

قدم له وشرح لغوياته

الدكتور الشيخ محمد علي الزعبي

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الإدارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الإدارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص. ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

www.alkottob.com

مقدمة

شذرة من منجم الجاحظ أو رميلة من ساحل ابن بحر

لا أدري بأي ناحية من نواحي أبي عثمان عمرو بن الجاحظ أبدأ ، وكل نواحيه جديرة بالإعجاب فمن راجع كتبه ازداد توقاً وتهيباً وإعجاباً كلما ازداد استيعاباً واطلاعاً ! فكأن اللغة اسلمته دفتها ومنحته زمامها وبايعته على الطاعة ، فتصرف بها دون ان يخشى عثرة ولا كبوة ، وأرانا لكل بحث ألفاظاً ولكل حقل اصطلاحاً ولكل مدخل فكر مفتاحاً و (لكل مقام مقالاً) !

ولذا اخذت هذه الروعة قلب ابن العميد فأنطقته كلمته (كتب الجاحظ تعلم العقل اولاً والأدب ثانياً) اذ رأى بكل سطر ما يحمل على الاستزادة فأخرجه جبار نثر وأسلوب في قديم تاريخنا وحديثه .

ولئن كان مجموع الناس لا يعرفون تركة ابي عثمان فإن جميعهم

www.alkottob.com

يعرفون اسمه ويعرفون نتفاً عن البصرة ، العش الذي درج منه ابو عثمان وأترابه اعلام العرب وخدّام لغتهم وديوان شعرهم وواسطة العقد بين جاهليتهم واسلامهم كالأصمعي والخليل والمازني وابن دريد ...

***

اصعد وانظر السماء

مزح ابو عثمان – كعادته – مع امرأة طويلة قائلاً : (انزلي كلي معنا) فأجابته (وكان قصيراً دميماً) (اصعد وانظر السماء) .

ما أجدرنا نحن الذين (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وحالت بيننا وبين التمتع بتركة ابي عثمان وقادتنا الدنيا بسلاسل مادتها وأحكمت على أعناقنا أكفاناً صفيقة سداها الأنانيات ولحمتها مطالب الجسد ودفنتنا في نواويس الرجاء المنهار المخيفة .

ما أجودنا بتحطيم هذه السلاسل وتمزيق تلك الأكفان ومحاربة تلك النواويس ، لنتحرر ونخرج منتصرين ظافرين ونصعد ونرى السماء .

سماء الفكر الخالد ، سماء أبي عثمان الذي مثل دور المرآة فعكس علينا صورة عصره وجاء شعاعها دائرة المعارف

الجاحظية التي أودعها فكره بعد أن صيّره مداداً وأطلقه بين الناس (ليملأ الدنيا ويشغل الناس) !

مساكين !

مساكين الشعراء الذين لا يحركون ألسنتهم إلا اذا لمع أمامهم أو في خيالهم المال ، سامحهم الله إذ هم (في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون) على قولهم في بعض الملوك :

هو البحر من كل النواحي أتيته
... فلجته المعروف والجود ساحله

سامحهم ، إذ لو أدركوا معنى خلود الفكر وفلسفة العقل الخالد وحلّقوا فوق المغريات الموقتة لادخروا هذا الوصف للبحر وابن البحر أبي عثمان الذي أغرقهم وأغرق سواهم من العرب والعجم ببحر من الفكر عذب فرات لا يزال يمدّ الغواصين بلؤلؤ الفكر ومرجان التحقيق .

اجل ، محيط بحرك الفريد يا أبا بحر يصلح للغوص والعوم في كل زمان ومكان فهو جديد قديم يساير الدهور ويعايش العصور .

لقد سبقت ابن خلدون في تصنيف الرواة وعلّمته كيف يتخذ التحقيق وسيلة للتمحيص والتصفية ويسقط على معرفة العلل والأسباب ليصدر الحكم المبرم على مستقبل الأمم ويعلل

www.alkutub.com

ارتفاعها وهبوطها !

وسبقت ذوي المذهب الفلسفي التجريبي وعدلت الفكر السوفسطائي الذي اتخذ الشك وسيلة لهدم القيم ومرّنت من بعدك امثال الغزالي وديكارت على اتخاذ الشك درجة أولى من سلّم اليقين ، فاستعنت بالحواس ، بعد ان جردتها من العصمة ، ولجأت للتجربة والعيان وجعلتها شرطاً سادساً لدرجات التيقن الأفلاطونية الأربعة !

وسبقت علماء الطبيعة الذين لا يقررون شيئاً إلا بعد تجربته والتثبت من صحته واستنتاج قوانينه من ظاهراته التي لا يرقى لها الريب ، ففزت وحدك في ميدان رهان خيول الحلبة وأصبحت كلمتك (ليس يشفيني إلا المعاينة) مصباحاً يسير بضوئه ذوو الفكر البعيد والنظر الثاقب من علماء الطبيعة والكيمياء وعلم النفس بل أصبحت دستوراً للأعلام ومنهاجاً للأساطين .

الغابطون والحاسدون

لقد فقت (لا سيا في كتابك الحيوان) ما جاء به ارسطو ووضعت يدك على اخطاء لو رآها الذين ينظرون بعين العصمة لكفكفوا من غلوائهم ووقفوا طويلاً ازاء قولك (زعم

صاحب المنطق) ! بل عالجت ما لم يعالجه احد من السلف ولم يعرفه بعض الخلف إلا مذ اخذت الشمس تشرق من مغربها وتتنكر لمشرقها الطبيعي وتتناسى أنها عيال عليه لا سيا في بحث الحيوان .

ولذا غبطك عليه السابقون واللاحقون والمعاصرون وسيغبطك الآتون وسينشدون مع الزمن (الفضل للمتقدم) وحسدك عليه محبو العاجلة وقضموا اناملهم حقداً وماتوا غيظاً وكمداً .

ولا غرابة فانت ابن البحر الذي سواحله الطرائف واللطائف ومرجانه كتابا (الحيوان ، والمحاسن والأضداد) وما اليهما من الكتب اليتيمة .

اجل حسدوك وتهيبوك وما ان انقضى عليك ثلاثة أيام في ديوان الخاصون حتى كان شعارهم (ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب) ولذا اشبعوك لسعاً ونهشاً وقضم لحم وإساغة دم فخرجت زاهداً بالحطام مسجلاً على جباه عابديه : (شعارهم الملق قد لبس قلوبهم الرعب وألفها الذل).

ثم مات الغابطون والناهشون واللاسعون واللادغون وعشت وحدك في قلوب الذين يقدرون الفكر والسبق !

لقد عرفت الحاسدين بسيماهم وتغلغلت اعماق نفوسهم فقدت

www.alkutob.com

بقواعدك الكلية : (ومـا لقيت حاسداً إلا تبين مكنونه بتغيير لونه وتحوّص عينيه) .

فنفذت لما يكنون وكشفت مـا تنطوي عليه صدورهم وزحت اغطية قلوبهم واذعت ما يدور في خلدهم فمنحتنا حجر الصائغ الذي يعرف به سليم النقد من زائفة واعدت لأذهاننا مغزى بيت ابي العتاهية :

ثوب الرياء يشف عما تحته
واذا التحفت به فإنك عار

بل شرحت معنى كلمة (المعاصرة حرمان) فكنت اذا ألفت كتاباً نفيساً ونسبة لنفسك رأيت من الحاسدين إعراضاً ، واذا ألفت كتاباً واذعته خطيراً ونسبته لسواك – ولو من الذين لا يبلغون شأوك – وجدت من اولئك اللاذعين الموتورين اقبالاً وتشجيعاً بل تقريظاً وإطراءاً !!

لعمري يا ابا بحر ، أي موضوع تطرقه ، أي بحر متلاطم لم تخضه ، لقد كتبت في جلائل الأمور : (الحيوان ، الفلسفة ، الحساب ، الهندسة ، علم النفس ، الفلك ، الأدب ، اللغة ، الاخلاق ، اصناف الانسان) ... ولم تنس الضحك والاضحاك والتهكم وما يستعذبه القارىء والسامع ويتخذانه عصا يتوكآن عليها لتجديد النشاط وطرد شبح الملل والسأم ،

فكأنك ابو القلم واخ القرطاس وابو مجدة – او شيخ مجدة – الفكر .

ولا عجب فقد تبتلت للعلوم مذ رأيناك تمحو اللوح في الكتاب بأناملك الناعمة ثم ترعرعت وأصبح هلالك بدراً متنقلاً من حلقة لحلقة ومن سارية مسجد لسارية واستجبت هاتف النهم العلمي وضربت أكباد الإبل طالباً محققاً حريصاً على اقتناص الفوائد وتقييد الشوارد هابطاً اغوار بلاد العرب صاعداً شقاقها ونجودها معرجاً على دمشق ومصر وانطاكية والاناضول لا ترى كتاباً الا تستوفيه قراءة وتستوعبه ادراكاً مسجلاً قرناً من العمر يذكرنا بالكلمة النبوية (خيركم من طال عمره وحسن عمله) ثم جعلت ختام الحياة مسكاً فأخذت تستأجر حوانيت الوراقين (المكتبات) لتسقط اكداس الكتب على جسمك الذي ارهقته فأخذ يموت نجوماً (تقسيطاً) ! وتكتب بدمك وبقايا انفاسك درساً نقش في سجل العقل الكلي .

* * *

اجل شذرة من منجمه ورملة من ساحله اذ ليس لمثلي ان يعرّف بالاعلام لا سيما وابو عثمان في مخيلة كل من تمتع ولو ببعض الذوق العلمي وسقط على تعريف الأدب .

www.alkottob.com

ولا اعني بكلمة الأدب هنا ما يعنيه الاصطلاح المعـــاصر الذي يرى من زاول القريض او مارس المقامات وحبّر المقالات أديباً ، بل ما يعنيه القدمـــاء اذ يرون كلمة صالحة للاطلاق على من ساهم بعدة فنون وعرف من كل فن احسنه .

لعمري ومن اجدر من ابي عثمان بهذا اللقب الا تعجب حين تقرأ له عشرة المواضيع وتتخيل حين مطالعة مطلق موضوع ان كاتبه لا يعرف سوى الفن الذي عالجه !

بل الا يتضاعف عجبك واعجابك حـين تعلم ان ابا عثمان امدنا بعشرات الكتب والرسائل وتراه مكتبة كبرى تجسدت رجلا او رجلا استوعب مكتبة .

هذه الرسائل

هذه الرسائل التي نفخر بتقديمها الآن للقراء ، صيد — من أجمة الجاحظ — سمين وغذاء من حقله نفيس وسارية يرفرف عليها علَم البيان ودعامة يعلوها مصباح ينير البصائر واسطر يكمن بها تعبير سليم وسبك بليغ وتوجيه قويم ، ونواة تتجسد نخلة المروءة وكرم النفس ونبل الشعور .

هذه الرسائل تذكر بتعريف البلاغة : (الكلام البليغ هو الذي اذا سمعه الشخص خال انه يستطيع الاتيان بمثله) .

هذه الرسائل خالية من التعقيد اللفظي والمعنوي ، كأنها سبقت اساليب هذا العصر الذي يحرص على أداء المعنى بريئاً من التكلف الذي غزانا بعصور الضعف والانحطاط وانتزع من ايدينا لذة قذف المعنى بنفس لسامع بكلمات موجزة سهلة .

أنظر الايجاز وبلوغ المراد بآن واحد كامنين بهذه الرسائل مرسومين بريشة ابي عثمان بهذا النص (الصدق والوفاء توأمان، والحلم والصبر توأمان ، بهن تمام كل دين وصلاح كل دنيـــا واضدادهن سبب كل فرقـــة وأصل كل فساد ، ولعمري ما غلطت الحكماء حين سمتها اركان الدين) .

* * *

هذه الرسائل خلاصة ما عرفته الأجيال التي سبقت الجاحظ والتي تلتـــه من الحكمة والسداد والنصح المنبثق من وعي وتجربة ، ومما يزيد في رونقها ويضاعف جمالها ، ترصيعهـــا بالآيات الكريمة وزركشتها بالاحاديث الشريفة والاستشهاد بها استشهاداً يكاد يريك إياها ازلت خصيصاً لما اراده الجاحظ ، هذا الى جمال الاسلوب وروعة التركيب فكأنك حين مطالعتها تعد الدنانير التي لم تخالطها الزيوف !

واني اتحقق ان الناس لو عثروا على هذه الرسائل منذ قرون

لألحقوها بالكتب التي لا يستغني عنها اديب او مثاوب واتخذوا العثور عليها دينهم والسقوط على ضالتهم .

هذه الرسائل جوهرة مكنونة لم يزدها مر السنين مخدّرة الا صفاءاً ولمعاناً ، وقد مرّت الدهور والأعصر وهذه الجوهرة دفينة الاصداف خزينة المكتبات حبيسة الحريصين على اقتنائها، ثم استدار الزمن فأخرجت الأرض دفائنها والاصداف مكنوناتها والخزن حبائسها فخرجت المكنونة اليتيمة تذكرنا بقول الحريري :

وطالما اصلي الياقوت جمر غضى
ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت .

هذه الرسائل آية في الاسلوب اليتيم والسهل الممتنع ، ولئن شاهد القارىء بعض ألفاظ قد تعقد المعنى أو تعثر السير وتعترض السياق ،فارجو ان يراها من يد النسّاخ الذين اصبحت تركة الجاحظ بينهم مشاعاً وقد كفـّرنا عن أخطائهم بالتحرز منها .

***

ولا بد لنا في الختام ان نستوقف القارىء إزاء نقطتين :

١ ـ ان العظماء امثال أبي عثمان ، اذا كتبوا نصيحة او

توجيهاً او تقويماً لشخص ما لا يقصدونه وحده بل يودون لو أصبح ما كتبوه دواءاً يتناوله كل من انتابه ما انتاب المقصودين به اولاً ، أو إكسير ينقذ الذين عضهم ناب الجهل أو عدم التجربة ومصباحاً ينير السبل ويطرد الظلمة وينشر من اجداث الحيرة ويقيل من ثمرات التردد .

فاذا ما وجه ابو عثمان رسالة لابن ابي دؤاد أو سواه ، فإننا لا نراها وقفاً على من وجـّهت له او لهم بل نراها أشعة شمس تغشى القصور والنجود والأغوار واليباب وخيوط فجر يتلقاها السارون والمدلجون والمعرّسون .

٢ ـ إن يد التطور وقانون تغيير الاحكام بتغيير الأزمان لا تنال من النواميس الثابتة الخالدة مثل (الصدق فضيلة ، الجهل منقصة ، الاسراف متلفة ...) فاذا شاهدنا ابا عثمان يحض على التمسك بمكارم الاخلاق ويحذر من مغبة التدهور والزلق ... فلا ينبغي لنا ان نقول : كان هذا دواءاً لعصره ، ونمثل دور السوفسطائيين الذين هدموا النواميس الثابتة بمعول التأويل ومسحوا عار الانحراف والتفاضل بقاعدة (لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان) اذ نواميس الاخلاق كنواميس الطبيعة .

www.alkottob.com

عدد الرسائل ، اسماؤها ، موضوعها

اربع رسائل تدعى :

١ — رسالة المعاد والمعاسن ، في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم .

٢ — رسالة كتمان السر وحفظ اللسان .

٣ — رسالة في الجد والهزل .

٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .

هذه الرسائل الاربعة يشملها اسم (رسائل في الاخلاق المحمودة والمذمومة) ارسلها ابو عثمان لابن دؤاد وابن الزيات لتكون دستوراً اخلاقياً ومصباحاً اجتماعياً يستضيء به هذان الوزيران ومن نهج نهجهما في تدبير الممالك ، اذ الاخلاق ، كما يراها علماء الاخلاق سارية يرتفع عليها علم الأمة ما زالت قوية مدعمة بالمكارم وينخفض ويهيض جناحها ما جنحت وتنكبت النهج القويم والصراط المستقيم .

ولا بد لنا — قبل نقع الغلة برسائل الأخلاق — ان تأخذ لحظات من وقت القارىء لنقف على شيء من تعريفها لغة واصطلاحاً .

الاخلاق ، لغة واصطلاحاً

الخلق (بفتح الخاء) هو التركيب العضوي او البدني او

الجبلي كبياض البشرة او سوادها او خلاسيتها ، او طول القامة او قصرها ، او سواد العين او زرقتها ... وما إلى ذلك من صفات حسّية .

اما الخلق (بضم الخاء) فنعني ما نصفه بـ (ذوي الصدر الرحب او الضيّق او السهل اللين ، او الوعر القاسي ...) وما إلى ذلك من صفات معنوية .

ومع اتفاق البحاثين في كل زمان ومكان على ان الله اودع في الانسان وكيلا عنه (العقل) وجهّزه بما ندعوه مكارم الاخلاق ، اختلفت كلمتهم في تحديد او تعريف كلمة اخلاق فدعاها بعضهم : علم العادات ، علم السلوك ، علم الخير والشر ، علم الواجبات ، علم القواعد التي تحمل على فعل الخير وتجنب الشر وتدفع للمثل العليا ، علم القواعد التي تسير عليها ارادة المرء الكامل في اعماله ليصل المثل العليا ... ثم اوجزوا التحديد والتعريف قائلين (قواعد عملية تحدد سلوكنا وتوجهنا لما نفعل بأحوال مختلفة) .

والاخلاق ، على مطلق تحديد أو تعريف ، اعمال ارادية صادرة عن تفكير ندعوه **تخييراً** كحركة يد الشخص السليم ورجله ولسانه ، اي تشمل ما يقتضي ثواباً او عقاباً ، او مدحاً او قدحاً ، ولا تشمل بحال ما ، ما ندعوه تسييراً ،

www.alkotob.com

كدقات القلب ورمش العين وحركات الطفل وحركات المريض : جسماً او عقلاً .

هل الاخلاق علم مستقل ؟

بحث الاخلاق ذو صلة وارتباط بسواه لا سيما بعلم النفس ، اذ لا بد لنا – كي نحكم على خلق ما – من دراسة ما يعرفه علماء النفس باسم : الاحساس ، الرغبات ، الارادة ، الميول ، الشعور ، العواطف ، اللذة ، الألم ... هذا بالاضافة للغرائز المعلومة .

الاخلاق وسيلة لا غاية

دراسة الاخلاق والخروج بها من دائرة النظريات للعمليات وسيلة من وسائل التهذيب والنجاح – الفردي والاجتماعي – قد نتوصل له بطرق كثيرة كمعرفة تراجم الناجحين وقد نخفي بعض ما بنفوسنا خشية ألسنة المجتمع او طلباً للتصدر فيه .

علاقة الاخلاق بالعادات

مهمة عالم الاخلاق شاقة ، اذ لا بد له من دراسة العادات والطقوس والعقائد لدى مختلف الشعوب ، فقد ترى امة ما

خلقاً مستهجناً ، وهو لدى سواها مألوف .

مثلاً ، زواج الشخص بأصوله وفروعه : (امهاته وبناته) مستهجن لدى جل الشعوب وخلق سيء وعادة تقزقز النفس ، ولكنه لدى بقايا المجوس ليس مستهجناً بل مبارك يثمر ذرية ذكية !

وهنا يقف عالم الاخلاق مشدوهاً مكتفياً بالقول : هناك اخلاق راسخة بالضمير العام كاستهجان الكذب ... وهناك اخلاق يختلف استحسانها او استهجانها باختلاف الزمان والمكان .

الفرق بين الأخلاق والعادات

الاخلاق ناموس ثابت لا يتغير ولا يتبدل باختلاف الزمان والمكان ، أما العادات فناموس طارئي قد يزور قوماً ثم لا يلبث ان يفارقهم .

فالصدق واحترام الأبوين واحترام حقوق الناس : اموالهم وأعراضهم ودمائهم ... ناموس ثابت جاءت به جميع الأديان السماوية وأنست به الأنظمة الوضعية واستقبله علماء الاخلاق بالترحيب .

أما العادات ، الناموس الطارئي ، فينبغي إحالتها الى محكمة

www.alkottob.com

النتائج ، فما أثمر منها خيراً لمن زاولها أو أسرته أو قومه أو الأسرة الانسانية الكبرى ، ينبغي إلحاقه بالأخلاق التي دعاها الجاحظ محمودة ، وإلا فيجب تسجيلها في سجل المذمومات .

الأخلاق ميزان الشعوب

الشعوب – ولو كانت منحرفة في عقائدها الروحية – اذا استقامت أخلاقها – ولو الاجتماعية كالتضحية في سبيل المجموع والاخلاص للوطن وخدمته على ضوء الثقافة .والفهم السليم – شعوب سجلت لنفسها السيادة – في بلادها على الأقل – !

أما الشعوب التي استقامت عقائدها الروحية وسلمت أخلاقها الفردية ومرضت الاجتماعية فضحت المجموع في سبيل أنانيات الأفراد وخدمت المصالح الخاصة مستترة بالعامة ، أو خدمت العامة غير مستنيرة بالثقافة والفهم السليم ، فشعوب حكمت على نفسها بالبقاء في الرعيل الأخير من قافلة الانسانية ، ولن يتغير واقعها إلا اذا استأنفت السير .

والأخلاق ، آخر حلقة من سلسلة الشوط الحضاري يقول علماء الاجتماع : (اذا كانت الأمم في الحرف الأول من أبجدية تكوينها تفاخرت بالقوة الجسدية فاذا تجاوزته تفاخرت بالعلم

واذا نالت منه تفاخرت بالأخلاق) .

والأخلاق رأس مال الفرد والجماعات إذ هي خاتمة مطاف اليقظين ولذا مدح الله خاتم الرسل بقوله (وانك لعلى خلق عظيم) وصرح بأن المقصود البعيد من رسالته الخالدة تقويم الاخلاق وتجديد ما طمس منها (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) .

وقال أمير الشعراء :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

لا استدراك

ليس لمثلي حق الاستدراك على أبي عثمان ولو بإيجاز مسهب أو إسهاب موجز ولكنها أسطر لا تعدو التعليق على بعض الكلمات اللغوية أو الاصطلاحات الفلسفية التي أرسلها أبو عثمان بعصر كان يرى فيه جميع قرائه أو أكثرهم يدركون مقاصده .

ثم بعدت الشقة وتغايرت الاصطلاحات والمفاهيم فاستأذنت روح أبي عثمان شهيدة البحث والتنقيب ولا أراها – وهي في دار الخلود – إلا مستجيبة إذ هي أشد مني حرصاً على نشر الفكر المنطلق وتعميمه .

وها أنا ذا – حرصاً على وقت القارىء وعملا بتوجيه بعض

www.alkottob.com

أقطاب الأدب وتزولاً عند رغبة الناشر ، أعلق على الكلمات التي أراها جديرة بالشرح والتعليق مكتفياً بوضع رقم إزاء العوائص يأخذ بيد القارىء لشرحها الذي جعلناه مسك الختام .

فكلمة الحكة في الصفحة الاولى مثلاً أخذت رقم (١) في الاصل والرقم نفسه في التعليق وهكذا دواليك .

فلسفة المعاد والمعاش

في الأدب وتدبير الناس ومُعاملاتِهم

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وأبقاك وأمتع بك . (*) إن جماعات أهل الحكمة (١) قالوا : واجبٌ على كل حكيم أن يُحسن الارتياد لموضع البُغية *وأن يتبيّن أسباب الامور ويَمهد لعواقبها . فإنما حُمدت العلماء بحسن التثبُّت في أوائل الامور *واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها ، وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم . فأما معرفة الامور عند تكشفها وما يظهر من خفيّاتها ، *فذلك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول. *والعالمون والجاهلون .

* ابتداء رواية م (١) .

www.alkottob.com

(*) وإني عرفتك – *أكرمك الله – في أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو *المُخلق (٢) للأعراض أغلبُ على نُظرائك وسُكر الشباب والجدة المتحيّفَين للدين والمروءة *مستول على لداتك ، فاختبرتَ أنت وهم ببسطة المقدرة وحُميّا الحداثة *وطول الجدة ، مع ما تقدّمتَهم فيه من الوسامة في الصورة والجمال في الهيئة . وهذه *كلها أسباب *تكاد توجب الانقياد للهوى *ولجج من المهالك لا يسلم منها الا المنقطع القرين في صحة الفطرة وكمال العقل . فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمّة أديانهم وسلطوها على مروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، *فآلت بأكثرهم *الحال الى ذُلّ العُدم وفقد عزّ الغنى في العاجل مع الندامة الطويلة *والحسرة في الآجل .

وخرجت نسيج وحدك *أوحدياً في عصرك ، حكّمت وكيل الله عندك (٣) – وهو عقلك – على هواك وألقيت اليه أزمّة أمرك ، فسلك بك *طريق السلامة وأسلمك الى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل *اللذّات أكثر* مما بلغوا *ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا* وصرّفك من *صنوف النعم في أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي خولك

* ابتداء ورواية ب .

ما أطلقه من أيديهم إيثار اللهو وتسليطهم الهوى على أنفسهم ، فخاض بك تلك اللجج واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين وافر المروءة نقي العرض * كثير البر آمن الجدة . وذلك سبيلُ من كان ميله الى الله اكثر من ميله الى هواه .

ولم أزل في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ولك بنعم الله عندك غابطاً (٤) ، أرى ظواهر أمورك *المحمودة* فتدعوني الى الانقطاع اليك وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، *ارتياداً (٥) منّي لموضع الخيرة في الأخوّة ، والتماساً لإصابة *الاصطفاء في المودّة وتخير المستودع الرجاء في النائبة (٦) . فلما محضتك الخبرة *وكشفك الابتلاء عن المحمدة *وقضت لك التجارب بالتقدمة وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة وقطع الله عذر* كل من كان يطلب الاتصال بك ،*طلبت الوسيلة اليك والاتصال بحبلك ، فمتت بحرمة الأدب وذمام كرمك .*وكان من نعمة الله عندي ان جعل *أبا عبد الله – حفظه الله – وسيلتي إليك ، فوجدت المطلب سهلاً *والمراد محموداً ، وأفضيتُ الى ما يحوز الأمنية *ويفوت الأمل فوصلت *اخائي بمودّتك وخلطتني بنفسك وأسمتني *في مراعي ذوي الخاصة بك ، تفضلاً لا لمجازاة *وتطولاً لا مكافأة . فأمنت الخطوب واعتليت على الزمان ،

www.alkottob.com

واتخذتك للأحداث عدة ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً . فلما حزت المؤانسة ، وتقلبت من فضلك في صنوف النعمة ، *وزاد بصري من مواهبك *في السرور والحبرة ، أردت خبرة المشاهدة فبلوت *أخلاقك، وامتحنت شيمك ، وعجمت (٧) مذاهبك على حين غفلاتك وفي الاوقات التي يقلّ فيها تحفظك، *اراعي حركاتك وأراقب مخارج أمرك* ونهيك ، فأرى* من استصغارك لعظيم *النعمة التي تنعم بها واستكثارك لقليل الشكر من شاكريك ، *ما أعرف به – *مما قد بلوت من غيرك ما قد شهدت *لي به التجارب – ان ذلك *منك طبع غير تكلف . هيهات ما يكاد ذو التكلف أن يخفى *على الغباة فكيف على مثلي من المتصفحين (*) . فزادتني المؤانسة فيك رغبة وطول العشرة لك محبة ، وامتحاني أفاعيلك لك تفضيلا وبطاعتك دينونة .*وكان تمام شكري لربّي ولي* كل نعمة والمبتديء بكل احسان ، الشكر لك* والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول *وفعل . لأن الله تبارك وتعالى نظم الشكر له بالشكر *لذي النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلها الا معاً ، لأن أحدهما دليل على الآخر *وموصول به . فمن ضيّع شكر ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيّع *وبشهادته استخفّ . *ولقد

* اهـ رواية م (١) .

جاء بذلك الخبر عن الطاهر *الصادق صلى الله عليه وسلّم *فقال : *من لم يشكر للناس لم يشكر لله . ولعمري إن ذلك لموجود في الفِطرة قائم في العقل ، أنّ من كفر نِعمَ الخَلق كان لنعم الله أكفر . لأن الخلق يعطي بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل العطيّة على القلوب ، والله يعطي *بلا كلفة . ولهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم من خلقه .

فلما وجبت *عليّ الحجّة لشكرك *وقطع عذري في مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصّي ذلك . إلاّ أني بسطتُ لساني بتقريظك ونشر محاسنك ، موصولٌ* ذلك عندي لآذان السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها . وقد رُوي *عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « من أُودع عُرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فلينشره، فاذا نشره فقد شكره وإذا كتمه فقد كفره » (*) .

*ثم قد رأيتُ أن قد بقي عليّ أمرٌ من الأمور يمكنني فيه بِرُّك *هو عندي عتيد وأنت عنه غير مستغنٍ والمنفعةُ لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة ، *إن شاء الله .

* اهـ رواية ب .

www.alkottob.com

(*) ولم أزل – أبقاك الله – بالموضع الذي قد علمت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين والعلم بأخلاق *النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقين ، من جميع الأمم وكتب أهل الملل . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثيرمن *المعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم . وعلمت أن ذلك من أعظم *ما أبرك به وأرجح ما أتقرب به اليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيت الله قسم لك من *العقل والفهم وركب فيك من الطبع الكريم . وقد أجمعت الحكماء *أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب ، ومثلوا ذلك بالنار والحطب والمصباح والدهن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك .

ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا * الى الغابرين بعدهم في الآداب عهوداً *قاربوا فيها الحق وأحسنوا فيها الدلالة . إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعاً

* ابتداء رواية م (٢) .

لم يبينوا عللها وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها وأموراً محمودة لم يدلوا على أصولها . فإن كان *ما فعلوا من ذلك * روايات رووها عن أسلافهم ووراثات *ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من *يستنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة * على أعيان الأمور *التي بمعرفة عللها يوصل الى مباشرة اليقين فيها وينتهى الى غاية الاستبصار منها ، فلم يعدوا في ذلك منزلة الضن بها . *ولن تجد وصايا أنبياء الله *أبداً إلا مبينة الأسباب مكشوفة العلل مضروبة معها الأمثال(*) .

فألفت لك كتابي هذا (٨) ، وأنا واصف لك فيه الطبائع *التي ركب عليها الخلق وفطرت عليها *البرايا كلهم ، فهم *متساوون فيها والى وجودها في أنفسهم مضطرون وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون . ثم مبين لك كيف *تفترق بهم الحالات وتتفاوت بهم المنازل ، وما العلل التي يوجب بعضها بعضاً وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول وربما كان الأول ولم يكن الثاني ، *وفرق ما بين الطبع الأول وبين

* ا هـ رواية م (٢) .

www.alkottob.com

الاكتساب والعادة* التي تصير طبعاً ثانياً ، ولمَ اختلف ذلك وكيف دواعي قلوب الناس وما منها يمتنعون منه وما منها لا يمتنعون منه وما أسباب توازع شهواتهم ، وما الشيء الذي يحتال *لقلوبهم به حتى تستمال وحتى تؤنس بعد الوحشة وتسكن بعد النفار ، وكيف يتأتى لينقض ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تصرف الى الشيم المحمودة . وراسم لك في ذاك أصولاً ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه .

وقد علمتَ أن في كثير *من الحق مشتبهات لا تستبان إلا بعد *النظر والتأمل . وهناك *يختِل الشيطان أهل الغفلة ، وذلك أنه لا يجد سبيلاً الى اختداعهم عن *الأمر الظاهر(*) . فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أقمت *لك بإزاء *كل شبهة دليلاً ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة ، *تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها *دفائن الصواب *وتستشف بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بينة وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة الى معرفة كثير مما يغيب عنك إذا عرفت العلل والاسباب ، حتى كأنك مشاهد لضمير كل امرىء، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه(*) وعوارض

** (١–٦) رواية م (٣) .

الأمور *الداخلة عليه . ثم غير راض لك بالأصول حتى أتقصى لك ما بلغه علمي من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك *إلا الأمر *المعقول في كل طبيعة والموجود في فطرة البرايا كلها . فإن أحسنت ذلك وأقمته على حدوده *ونزلته منازله ، كان عمرك – وإن قصرت أيامه – طويلاً وفارقت ما لا بد لك *من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع ، وإنما أصول *أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة. فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت *فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين .

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة . ولذلك *قال الله عز وجل ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقل بذلك العقل ، فبقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر،

www.alkottob.com

لأن هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب
عنه أجهل .

فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنه جماع كل خير
وسبب كل نجاة ولقاح كل رشد ، هي أحرز حرز وأقوى معين
وأمنع جنة (٩) ، هي الجامعة محبة قلوب العباد *والمستقبلة
بك محبة من لا تجري عليهم نعمك . فأجعلها عدتك وسلاحك
وأجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

وأحذرك ونفسي الله والاغترار به والإدهان في أمره
والاستهانة *بعزائمه والأمن لمكره . فقد رأيت *آثاره في أهل
ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عبرة وللغابرين مثلاً .

وأعلم أن خلقه كلهم بريّته ، لا *وصلة بينه وبين أحد منهم
إلا بالطاعة . فأولاهم به أكثرهم تزيّداً في طاعته ، وما خالف
هذا فإنه أماني (١٠) وغرور . *وقد مكن الله لك من أسباب
المقدرة ومهد لك *في تمكين الغنى والبسطة ما لم تنحله بحيلة
*ولم تلقنه بقوة ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكنك ليبلو
خبرك ويختبر شكرك ويحصي سعيك ويكتب أثرك، ثم يوفيك
أجرك ويأخذك بما اجترحت *يدك ، أو يعفو فأهل العفو هو.
ولله ابتلاءان في خلقه — والابتلاء هو الاختبار — ابتلاء بنعمة
وابتلاء بمصيبة . وبقدر عظمها يجب التكليف *من الله عليها .

فبقدر ما خوّلك من النعمة يستديك الشكر. ولو تقصّى الله
على خلقه لعذّبهم . ولذلك *قال : لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا
ما ترك على ظهرها من دابة . ولكنه قبل التوبة وأقال العثرة
وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكمُ في الدنيا، ميزان قسط
وحكم عدل . وقد قال الله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك
هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم
في جهنمَ خالدون . وهذا مثل ضربه الله لأن الناس يعلمون أن
لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى
قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك أن أحداً
من الخلق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ، فأخبر أن من
كانت حسناته الراجحة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ،
كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومن مالت
سيئاته بحسناته كان العطب والعذاب أولى به . وكذلك حكمه
في الدنيا ، لأنه *قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعداله .
وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصلاح *في أفعالهم وإن
هفوا وتبرّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور* على*أفاعيلهم وإن
أحسنوا في بعض الأمور . وكذلك جرت معاملات *الخلق
بينهم ، يعدّلون العادل *بالغالب من فعله وربما أساء ويفسّقون

www.alkottob.com

الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها وإنما يقضى على كل امرىء* بما شاكل أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول جرت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تغبننّ حظك من دينك . *وإن استطعت أن تبلغ من الطاعة غايتها فلنفسك تمهد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب *أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكون ميلك *عند الإساءة إلى الله أكثر، والله يوفقك .

اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار المنافع ودفع المضارّ *وبُغض ما كان بخلاف ذلك. هذا فيهم طبع مركب وجِبلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه موجود في الانس والحيوان ، لم يدّع غيره مدّع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء *كزيادته تميل الطبيعة* معها كميل كفتي الميزان *قلّ ذلك أو كثر .

*وهاتان خلّتان داخل فيهما جميع محابّ العباد ومكارههم . والنفس في طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة والاستطراف (١١) *والتنوّق (١٢) وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة والروائح العبقة *والطعوم الطيبة

والأصوات المونقة والملامس اللذيذة ومما *كراهته في طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الخلال التي يجمعها *خلتان غرائز في الفطر وكوامن في الطبع ، جبلة ثابتة وشيمة مخلوقة . *على انها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم *قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبّرهم . فلما كانت هذه طبائعهم أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم وجعل في ذلك ملاذّ لجميع حواسهم ، فتعلقت *به قلوبهم وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة – مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعم – صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطف والتبارّ (١٣) وإذا ذهبا كان ذلك سبباً للفساد وانقطاع التناسل وفناء الدنيا وأهلها . لأن طبع النفس لايسلسَ بعطيّة قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تعوض أكثر مما تعطي إما عاجلا وإما آجلا مما تستلذه حواسها .

فعلِم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون *ولا ينقادون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي غير ناجعَين *فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في *طباعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنته وجعلها عوضاً مما تركوا في جنب *طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار على معصيته وخوّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه *والطبع الأول جرّوا على

سنن الفطرة *وعادة الشيمة ، ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة ، وعدّلهم تعديلاً متفقاً فقال فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

ثم أخبر *الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدبيره الخلل ولا *جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وأوعده . فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، فاطّرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقتها ما في الفطرة وأخذهما بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس وأكثر معصيته فيما تلذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات » ، *يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره والطريق إلى النار اتباع الشهوات* . *فإذ كانوا لم يَصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفتُ *لك من الرغبة والرهبة ، فأعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها من أمّل أو ظنّ أو رجا أن أحداً من الخلق – فوقه *أو دونه – يَصلح له ضميره أو يصح له بخلاف ما دبّرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرهبة *أصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت . فاجعلهما مثالك الذي يُحتذى عليه وركنك الذي يُستند إليه .

(*) *واعلم أنك *إن أهملت ما وصفت لك ، عرضت تدبيرك للاختلاط . وإن *آثرت الهوينا واتكلت على الكفاة في الأمر الذي لا يجوز فيه إلا نظرك ، *وزجيت أمورك على على رأي مدخول وأصل غير محكم ، ورجع ذلك عليك بما لو *حكم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه .

واعلم أن إجراءك الأمور مجاريها واستعمالك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك ألفة القلوب ويعاملك كل من عاملك بمودة *أخذاً وإعطاءً ، وهو على ثقة من *بصرك بمواضع الإنصاف وعلمك بموارد الأمور (*) .

واعلم أنّ أثرتَك على غير النصيحة والشفقة والحرمة والكفاية *توجب المباعدة وقلة الثقة ممن آثرته أو آثرت عليه . فاعرف لأهل البلاء ممن جرت بينك وبينه مودة أو حرمة – ممن فوقك أو دونك أو نظراءك – أقدارهم ومنازلهم *ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . *ولا تؤثر في ذلك أحداً بهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة وتوجب استصغار عظيم النعمة *ويُمحق بها الإفضال *وتفسد بها الطائفتان مَن *آثرت ومن آثرت عليه .

(**) (١ - ٧) واعلم ... الأمور : رواية م (٤)

[illegible]

[illegible]

www.alkottob.com

في المثل :

مَن لا يؤدّبه الجميلُ ففي عقوبته صلاحه (*) .

وقال بعضُ الحكماء : ليس بحكيمٍ مَن لم يُعاشر مَن لا يجدُ من مُعاشرته بدّاً بالعدل والنَّصفَة ، حتى يجعل الله *له من أمره فرجاً ومخرجاً .

*فاحفظ هذه الأبوابَ التي يوجِبُ بعضها بعضاً . وقد ضمِنت *لك أوائلها كونَ أواخرها ، *فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنه متى كان الأولُ منها وَجَب ما بعده لا بُد منه . فاحذر المقدمات التي يَعقبها المكروه ، واحرِص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، *والقح في البدي أموراً* نتاجها العافية . فمن الأمور التي يوجِبُ بعضها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبة والمضرةُ توجب البغضاء والمضادةُ توجب العداوة ، وخلافُ الهوى يوجب الاستثقال *ومتابعتهُ توجب الألفة ، والصدقُ يوجب الثقة والكذب يورث *التهمة والأمانة توجب الطمأنينة ، والعدلُ يوجب اجتماع القلوب والجورُ يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المودّة وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباضُ يوجب

---

*(١-٦) فان ابتليت ... صلاحه : رواية م (٥) .

الوحشة ، *والكبرُ يورث المقتَ والتواضعُ يوجب المِقة ، *والجودُ بالقصد يوجب الحمد والبخلُ يوجب المذمة ، والتواني يوجب التضييع والجدُّ يوجب رخاء *الأعمال ، والهوينا تورث الحسرة والحزمُ يورث السرور ، والتغريرُ *يوجب الندامة والحذرُ يوجب العذر *وإصابة التدبير توجب بقاءَ النعمة ، والاستهانةُ توجب التباغي ، *والتباغي مقدمة الشر وسببُ البوار .

ولكل شيء *من هذه إفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يدخلُ من الخلل فيها يَدخل فيما يتولد منها ، لا بدّ منه ولا مَزحَلَ عنه ، عليه عادةُ الخلق وبه جَرَت طبائعهم ، وتمامُ المنفعة بها إصابةُ *مواضِعها . فالإفراطُ في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع *يورث المذلة ، والإفراط في الكبر *يدعو إلى مقتِ الخاصة ، والإفراطُ في المؤانسة يدعو خُلطاءَ السوء ، *والإفراطُ في الانقباض يوحشُ *ذا النصيحة ، وآفةُ *الأمانة ائتمانُ الخائنة (١٤) وآفةُ الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذرَ *يدعو إلى أن لا يوثق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، *والإفراطُ في المضرّة مَبعثة على حَرْبك* ، والإفراطُ في حَجرِ المنفعة مِغناً لمن أفرطتَ في نفعه عنك .

واحذر كل الحذر أن *يختدعك الشيطان عن *الحزم ،

فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحذر ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار . *فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الأعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سنته ، فقال خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . وقولُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اعقلها وتوكل » . وسُئل ما الحزم ؟ قال الحذر . فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما *هو على العادة وما تضرّي عليه النفوس ، ولذلك قالت الحكماء : العادة أملك بالأدب . فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة *وضرّها بكل ما لا يُذم من *الأخلاق ، يصر ذلك *طباعاً ويُنسب إليك منه أكثرُ مما أنت عليه .

واعلم أن الذين يوجب لك اسم الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النوائب مع بعض التفضل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسمُ الجود زال عنك اسمُ البخل .

واعلم أن تثمير المال آلةٌ للمكارم وعونٌ على الدين ومتألف للاخوان ، *وأن من قد فقد المال قلت الرغبةُ اليه والرهبةُ منه ، ومن لم يكن بموضع رغبةٍ ولا رهبةٍ استهان الناس به . فاجهد الجهد كله ألا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبةٍ في دينٍ أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تثمير معه لقليل ولا تصلحُ عليه دنيا ولا دين . *وتأدب بما أدب الله نبيه* فقال ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . وقالت الحكماء : القصدُ أبقى للجمام . فداوم حالك وبقاء النعمة عليك بتقدير *أمورك على قدر الزمان بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة لم يستقلها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجري

واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في *موضعه وعند إصابة فرصته ، وذلك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عياً ولا رهبة . فليزدك في الصمت رغبةً ما ترى من *كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص وهذرِ من أطلق لسانه بغير *حاجة .

واعلم أن الجبن جبنان والشجاعة شجاعتان ، *وليس تكون الشجاعة والجبن إلا في كل أمر لا يُدرى ما عاقبته يُخاطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا تشجعن نفسك على أمر أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظمُ مما تبذلُ فيه *في المستقبل ، ثم يكون *الرجاء في ذلك أغلب عليك من الخوف . وهذا هنا موضعٌ يحتاج فيه إلى

www.alkottob.com

النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين أو خوفاً لعار تسب به الأعقاب فأنت معذور بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان *أمراً تعظم منفعته للدنيا إلا أنك لا تناله إلا بالخطار بمهجة نفسك أو بتعريض كل مالك للتلف ، فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ولكن حماقة بينة عند جميع الحكماء . وقد قالت *علماء أوائل الناس : لا ترسل الساق إلا *ممسكاً ساقاً . وقالوا : لا تخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبيه . ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال : أشرفها أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة ولنفسك ناظراً ، فإن كثرة الأعداء تنغص للسرور . وقد قال الله تبارك وتعالى ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . فإن كان عدوك ممن لا يصلح على ذلك ، فحصن عنه أسرارك وعم عليه آثار تدبيرك ولا يطلعن على شيء من مكايدك له بقول ولا فعل ، فيأخذ حذره ويعرف مواضع عوارك فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة التدبير *وإكثار الوعيد للأعداء فشل ولكن داج عدوك ما داجاك وأحص معايبه *ما

لاحاك . (١٥) وقال الشاعر :

كل يداجي على البغضاء صاحبه
زكنت (١٦) منهم على مثل الذي زكنوا

واعلم أن أعظم أعوانك عليه الحجج *ثم الفرصة . ثم لا تظهرن عليه حجة ولا تهتبل منه غرة ولا تطلبن له عثرة ولا تهتكن له ستراً ، *إلا عند الفرصة في ذلك كله وفي المواضع التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره . هذا إن كان العفو عنه شراً له . وإن كان ممن يظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة وكان ممن أعياك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين : استبطان الحذر منه والاستعداد له ، وإظهار الاستهانة به . ولست مستظهراً عليه بمثل طهارتك من الأدناس وبراءتك من المعايب . فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه *من العدو والصديق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « استعينوا على الحوائج بسترها ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وإذا فشيت سرك فجاءت الأمور على غير ما تقدر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل في الأمثال :

www.alkottob.com

مَن أفشى سره كثر *المتآمرون عليه . *فلا تضع سرك إلا عند من يضره نشره كما يضرك وينفعه *ستره بحسب ماينفعك .

واعلم أنك تستصحبُ من الناس *أجناساً متفرقةً حالاتهم متفاوتة منازلهم ، *وكلهم بك إليه حاجة وكل طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا تقوم به من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة *ومنهم من تريده للحفظ والأمانة* ومنهم من تريده للشدّة والغلظة ومنهم من تريده للمهنة ، وكلٌّ يسدّ مَسدَّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : إن الخلال تنفع حيث لا ينفعُ السيف . ولا تخلين أحداً *منهم – عظم قدره أو صغُرت منزلته – من عنايتك وتعهدك ، بالجزاء *على الحسنة والمعاتبة عند العثرة ، ليعلموا أنهم منك بمرأى ومسمع . ثم لا تجوزنَّ بأحد منهم حدَّه ولا تدخله فيما لا يصلح له ، يستقم لك حاله *ويتسق لك أمره .

واعلم *أن سيمر بك *في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مداراة *أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها وكمال العقل والأدب منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها *وتكف عن جماحها ، *بأمر لا يحرجك في دينك ولا عرضك ولا بدنك ، بل يفيدك *عز الحلم وهيبة

الوقار *وهي أمور مختلفة تجمعها حال واحدة : منها أن تأتي محفلاً فيه *جمع من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقه ، حتى يكون أهله *الذين يرفعونك فتظهر جلالتك وعظم قدرك . ومنها أن يفيض القوم في حديث عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم . فإن نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك، فصرت كأنك تمن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك . ومنها أن يتمارى جلساؤك ، والمراء نتاج اللجاجة وثمرة أصلها الحمية ، فإن ضبطت نفسك كان تحاكمهم إليك ومعولهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس – *إذ كان على حب العلو والغلبة – أن في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع محبة العامة بالتواضع ومودة الإخلاء بالمؤانسة والاستشارة والثقة والطمأنينة .

واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك ، فالصديق وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المداراة *والمواربة ، *والمسالمة والمداراة هما ضدان يتنافيان *يفسد هذا ما أصلح هذا* ، *وكلما نقصت من أحد البابين* زاد في صاحبه ، إن قليلٌ فقليل وإن كثيرٌ فكثير . فلا تسلم *بالمواربة صداقة *ولا تظفر بالعدو مع الاستسلام إليه .

www.alkottob.com

فضع الثقة موضعها وأقم الحذر *مقامه وأسرع إلى التفهم بالثقة *ولا تبادر إلى التصديق ولا سيما بالمحال من الأمور .

واعلم أن كل علم *بغائب – كائناً ما كان – إنما يصاب من وجوه ثلاثة لا رابع لها ، ولا سبيل لك ولا لغيرك إلى *غاية الإحاطات لاستئثار الله بها . ولن تهنأ بعيش مع شدة التحرّز ولن يتسق لك أمر مع التضييع. فاعرف أقدار ذلك .

فما غاب عنك مما قد رآه غيرك *مما يدرك بالعيان ، فسبيل العلم به الأخبار المتواترة التي يحملها الولي والعدو والصالح والطالح المستفيضة في الناس ، فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجه يستوي فيه العالم والجاهل .

وقد يجيء خبر *أخص من هذا ، إلا أنه لا يعرف إلا بالسؤال عنه والمفاجأة لأهله . كقوم *نقلوا خبراً ، *ومثلك يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم وتباعدهم من التعارف *لا يمكن في مثله التواطؤ ، وإن جهل ذلك أكثر الناس . وفي مثل هذا الخبر *يمتنع الكذب ولا يتهيأ الاتفاق فيه على الباطل.

وقد يجيء خبرٌ أخص من هذا يحمله الرجل والرجلان ممن *يجوز أن يصدق ويجوز أن يكذب . فصدق هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظن بالمخبر والثقة بعدالته . ولن يقوم هذا

الخبر من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين *الأولين . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنّع بالدين واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعض الأمناء عن خيانة وبعض الصادقين عن كذب ، *وأن مثل الخبرين الأولين لم يتعقب الناس في مثلها كذباً قط ، *علم ان الخبر إذا جاء *من مثلها جاء *مجيء اليقين ، وأن ما عُلم من خبر الواحد فإنما هو بحسن الظنّ والائتمان . *هذه الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأما العلمُ بما غاب مما لا يدركه أحدٌ بعيان ، مثل سرائر القلوب وما أشبهها ، فإنما يُدرك علمها بآثار أفاعيلها *وبالغالب من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

*وأول العلم بكل غائب الظنون . والظنون انما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوى الظن حتى ينتهي الى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ، وذلك لكثرة الدلائل *ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة* . (*) فمن عرف ما

---

* ص ٢٦ ، ١ – ٢٧ ، ١١ (فمن عرف ... والله يوفقك)

www.alkottob.com

طبع عليه الخلقُ وجرت *به عاداتهم وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم وتقصّى *علل ذلك ، كان خليقاً – إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم – أن يقع من الاحاطة *قريباً .

(*) واعلم أنّ المقادير ربما جرت بخلاف ما يقدّر الحكماء ، فنال *بها الجاهل في نفسه المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال ، فإن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير *بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ممن عمل بالتفريط ، وإن اتفقت له الأمور على ما أراد . *ولعمري ما يكاد *ذلك يجيء إلا في أقل الأمور . *وما كثر مجيء السلامات إلا لمن أتى الأمور* من وجوهها . وإنما الأشياء بعواملها* .

فلا تكونن بشيء مما في *يدك أشد ضنناً ولا عليه أشدّ حدباً منك بالأخ الذي قد بلوته *في السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه *وخبرت شيمه وصح لك غيبه وسلمت لك ناحيته . فإنما هو *شقيق روحك وباب الروح إلى حياتك ومستمد

* واعلم ... المهذب (ص ٢٧ س ٧) رواية م ٦

رأيك *وتوأم عقلك . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة ولا بد من *مؤانسة . وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . *فإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين تكرههما ، فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك . وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : من لك بأخيك كله ، وأي الرجال المهذب . ثم* لا يمنعك ذلك من الاستكثار من *الأصدقاء ، فإنهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطراف *صديق ثان على* ملالة الصديق الأول ، فإن ذلك سبيل أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير وزهد الأصدقاء جميعاً في إخائك ، والله *يوفقك .

وستجد في الناس من قد جربته الرجال قبلك ومحضه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة فنافس فيه واسبق إليه ، فإن اعتقاده أنفس *العقدة . ومن بلاه غيرك فكشف عن كفر النعمة والغدر عند الشدة ، فقد حذرك نفسه وإن آنسك ، وكما غدر بغيرك يغدر بك . فإن من شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومن طبيعته

www.alkottob.com

الغدر *لا يدوم وإنما يميل مع الرجحان ، *يذل عند الحاجة ويشمخ مع الاستغناء. فاحذر ذلك أشد الحذر .

واعلم أن الحكماء لم تذم شيئاً ذمها أربع خلال : الكذب ، فإنه جماع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده . والغضب ، فإنه لؤم وسوء مقدرة . وذلك أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى ممن فوقه أغضى وسمى ذلك حزناً ، وإن جاءه ذلك ممن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة بالبسطة . والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ، فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في *مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع ، مع علمه بفوت المجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل *الشره والحسد واحد وإن افترق فرعاها . وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يكون عليه في ذاك شيء . فالحسد اغتمام والغدر لؤم. وقال بعض الحكماء : الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب . وزعموا أنه لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء وخمول قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

وبقدر ما ذمت الحكماء *هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حمدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها *الأقاويل وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور *في الدنيا والدين* . فاجعل هذه الأخلاق اماماً لك ومثلاً بين عينيك ورض عليها نفسك وحكمها في أمرك ، تفز بالراحة في *العاجل والكرامة في الآجل .

والصبر صبران ، فأعلاهما أن تصبر *على ما ترجو فيه الغُنم في العاقبة . والحلم حلمان ، فأشرفهما حلمك عمن هو دونك . والصدق صدقان ، أعظمها صدقك فيما يضرك . والوفاء وفاءان ، *أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإن من عُرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نُسب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عُرف بالوفاء استنامت إلى الثقة به الجماعات* ، ومن *استعزّ بالصبر نال جسيمات الأمور . ولعمري ما *غلطت الحكماء حين سمتها أركان الدين والدنيا . فالصدق والوفاء *توأمان والصبر والحلم *توأمان ، *فبهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا ، وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد .

وأحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها وضيّعوا النظر

www.alkottob.com

فيها، مع اشتمالها على الفساد وقدحها البغضاء في القلوب والعداوة بين الأودّاء : المفاخرة بالأنساب . فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع *الإنس جميعاً على الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرّق الأمور المحمودة *والمذمومة ، من الجمال والدمامة واللؤم والكرم والجبن والشجاعة في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ، ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الآدميّين . وهذا غير مدفوعٍ عند الجميع . فلا تجعلنّ له من عقلك نصيباً ولا من لسانك حظاً ، تسْلَمْ بذلك على الناس أجمعين مع السلامة في الدين .

(*)واعلم أنك موسومٌ بسيما مَن قارنتَ ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت ، فتحرّز من دُخلاء *السوء ومجالسة* أهل الريَب . وقد جرَتْ لك في ذلك الأمثال وسُطّرت *لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرء حيث يَجعلُ نفسَه . وقالوا : يُظَنُّ بالمرء *ما يُظنُّ بقرينه . وقالوا : المرء *بشِكله والمرء بأليفه . ولن تقدرَ على التحرُّز من *جماعة الناس ، ولكنْ أقِلّ المؤانسةَ إلا بأهل البراءة من كل دَنَس . واعلم أن المرء بقدرِ ما يَسبقُ إليه يُعرَف وبالمستفيض

---

* (٣ - ١٥) واعلم ... التدمير : رواية م (٧) .

من أفعاله يوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من *خلافِه ألغاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره . فاجهدْ أن يكون أغلبُ الأشياء *على أفاعيلك ما* تحمَدُه العوامُّ ولا تذُمُّه الجماعاتُ ، فإنّ ذلك يُعَفّي على كلّ خَلَلٍ إن كان . فبادِر ألسنَةَ النَاس فاشغلها بمحاسِنك فإنهم إلى كلّ *شيء مِراعٌ . واستظهرْ على مَن دُونك بالتفضُّل *وعلى نُظرائك بالإنصاف وعلى *مَن فوقك بالإجلال ، تأخذْ بوثائق الأمور وأزمّة التدبير .

وأعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراحه كله دليل على قلة الاكتراث *بأمر الصديق ، فكن فيه بين أمرين : عاتبه فيما تشتركان في نفعه وضره وذلك في الهنات ، وتجاف له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء وربما أورث الملالة، وطول الهجران يعقب الجفوة ويحل عقدة الإخاء ويجعله صاحبه مدرجة للقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلى حبيباً فأكثر دونه عدد الليالي
*فما يسلى حبيبك مثل نأى ولا يبلى جديدك كابتذال *

واقتصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرّي عليك أهل الدناءة ، وإن التقصير *فيه يقبض عنك

www.alkottob.com

المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح *بالذي يسوء معاشريك .

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيته يتخلق به ، وذاك أن محمله شديد ومرتقاه صعب ، وبحسب ذلـك يورث الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لـك انحطاط من حطت الدنيا من إخوانك استهانة *بـه ولا لحقه إضاعة ولمـا كنت *تعلم من قدره استصغاراً ، بـل إن زدته قليلاً كان أشرف *لك وأعطف للقلوب عليك . ولا يُحدث لك ارتفاعُ من رفعت الدنيا منهم تذللاً وإيثاراً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ، بـل لو انقبضت عنـه كان مادحُك أكثرَ من ذامّك وكان هو أولى بالتعطّف عليك . إلا أن يكون مُسلطاً تخـافُ *شذاته ومعرّته وترجو عنده جرّ منفعةٍ لصديق أو دفع مضرّةٍ عنه أو كبتاً لعدوّ وإنزالَ هوانٍ بـه . فإنّ السلطان وخيلاءه وزهوَه يُحتملُ فيه ما لا يجوز في غيره ويعذرُ فيه ما لا يُعذرُ في سواه .

*واعلم أنّ نشرَ محاسنك لا يليقُ بك ولا يُقبلُ فيك ، إلا إذا كان القولُ لها على ألسُنِ أهلِ المروءاتِ وذوي الصدق والوفـاء ، ومن ينجعُ قوله في القلوب ، ممّن يُستنامُ إلى قوله ويُصدّقُ خبرُه ، وممّن إن قال صدق أو مدَح اقتصد ، يثني بقدر البلاء ، فإنّ إسراف الثناء على قدر النعمة يولد في القلوب

التكذيب ويدلُّ على طلب *التزايُد . فأمّا ثناء المادحين لك في وجهك ، فإنّمـا تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح وساهلوك في المبايعة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس أولئك الصادّون عن طُرُق المكارم والمثبّطون عن ابتناء المعالي . فارتد لِنِعمِك مَغرِساً تنمو فيـه فروعها وتزكو ثمرُتها ، لا تذهب نفقتك ضياعاً ، إمّا لعاجلٍ تقدّمه أو لآجل ثناء تنتفعُ به .

ولن تعـدَمَ أن يفجأك في بعض أحوالك حقوقٌ تبهظك *وأحوال تفدحُك وأمورٌ كلها تتسّمُ *عنايتك وفي التثبُّت في مثلها تعرَفُ فضيلتُك . *فلا تستقبلها بالتضجُّع *وتغبين الرأي ، *وابدأ منها بأعظمِها منفعةً وأشدّها خوفَ ضررٍ ، وكلُّ مـا أعجزَك الى الكفاة واعتذر من تقصير ان كان ، *فإنّ الاعتذار يكسرُ حُمّى *اللائمة ويردع شذاةَ الشِرّة . ثمّ تلافَ بعدَ *انكسار ذلك *عنك ما فاتك* .

واجهد الجهد كله أن تكون مخارجُ الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً موصولة* لأصحابها ببِشرك وطلاقـة وجهك ، فقد زعمت الحكماء أنّ القليل مع طلاقة الوجه أوقعُ بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع العبوس والانقباض . *وقد قال بعضُ الحكماء غايةُ الأحرار أن يلقوا مـا يحبُّون ويُحرموا

www.alkottob.com

أحبُّ إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا* . ·ومـــا أبعدوا من الحق

ولا يدعونّك كفرُ كافرٍ لبعض نعمك ممن آثر هواه على دينه ومروءته *أو غدر غادر تصنّع لك وختلك عن مالك ، أن تزهد في الإنعام وتسيء بثقاتك الظنون . فإن هذا موضعٌ يجد الشيطان في مثله الذريعة إلى استفساد *الطبائع وتعطيل المكارم .

واعلم أنّ استصغارك نعمك *يكبّرها عند ذوي العقول وسترك لها نشرٌ لها عندهم . فانشرها بسترها *وكبّرهـــا باستصغارها .

واعلم أنّ من *الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها ومنافع أضدادها* فلإيثارها فضيلةٌ على كلّ حال . فاجعل صمتك أكثر من كلامك ، فإنه أدلُّ على حكمتك . واجعـــل عفوك أكثر من عقوبتك ، فإنّ ذلك أدلُّ على كرمك . ولا تفرطنّ فيه كلّ الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في أوانه .

واعلم أنّ لكلّ امرىءٍ سيداً من عمله ساهلته فيه نفسه وسلس له فيه هواه . فتحفظ ذلك من نفسك وتقاضها الزيادة

فيه ورُضها على تثميره والمواظبة عليه (*)

واحذر الحذر كله الاغترار بأمور ثلاثة ، فإنّ من عطب بها كثير وتلافيها صعبٌ شديد : أحدها أن *لا تولي جسائم تصرّفك ·وتقلد مهمّ أمورك ووثائق تدبيرك *إلا امرءاً صلاحه موصولٌ بصلاحك وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة عليه . *وأن لا تأنس أو تغترّ بمن تعلمُ أنّ بصلاحك فساده وبارتفاعك انحطاطه وبسلامتك عطبه ، فإنّ من كان هكذا فأنت ملك موته ، فبحسب ذلك فليكن عندك . *وأن تجعل مالك كله في عُقدةٍ واحدة أو حيّزٍ واحدٍ ·أو وجـــهٍ منفردٍ إن اجتاحته جائحةٌ أو نابته نائبة بقيت حسيراً . وقد قال بعض الحكماء : فرّقوا المنية واطلبوا الأرباح بكل شعب.

*واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمّتها الحكماء خلقٌ إلا وقد ينفع في بعض الحالات *ويُردُّ به شكله *ويقـــام بإزاء مثله ويدافع به نظيره . *إنك مُتَّمنى بصحبة السلطان الحازم العادل وبصحبة السلطان الأخرق الجهول الغشوم ، فالحـــازم العادل يسوسه لك الأدب والنُصح والأخرق يسوسه لك الحيـلة والرفق . العادل يعضدك منه ثلاث وتصير نفسه لك على ثلاث ، فاللواتي يعضُدنك : تسليط العدل وإنقاذ الحكومة — وفي ذلك

* يتلو في الفصل المشار إليه في تعليقه ص ٢٦

www.alkottob.com

صلاح الرعيّة — وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصين البيضة والسُبُل ، والعفو ما بُلغ به الاستصلاح واكتُفي به من *البسط . (واللواتي تصبر نفسه لك عليهنّ الهوى إلى ما وافق الرأي وأمضى الرأي إلا بعد التثبّت حتى تعاونه عليه النُصحاء) .

*ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تُذلّلها على الأمور المحمودة ، فإنّ *كلّ أمر ممدوح *هو ما تستثقل النُفوس ، ·ومما تسرّ به وتنقلبُ إليه الأخلاق المذمومة . فإن أهملتها وإياها غلبت *عليك لأنها فيها طبيعة مركبة* وجبلّة مفطورة . فلتكنُ المساهلةُ في أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسرة والحلمُ أولى بك من العجلة والصبرُ الحاكم عليك دون الجزَع والعفو أسبق إليك من المجازاةِ بالذُنوب والمكافأةِ بالسوء ، *وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة فلتكن محموداتها غالبةً على أفعالك مُحكمةً في أمورك* . فإنك إن ضبطت *ذلك وقوّمت عليك نفسَك عشتَ رَخيّ البال قليلَ *الهم كثيرَ الصديق قليلَ العدوّ *سليمَ الدين نقيّ العِرض محمود الفِعال* جميلَ الأحدُوثة في حياتك وبعد وفاتك ، وكنتَ بموضع *الرجاء أن يصلَ الله لك *السلامة الآجلة بالنّعمة *العاجلة .

أسأل الله المبتدىء بكلّ نعمة والمولي لكل إحسان أن يُصلّيَ على محمدٍ خيرته من خلقه وصفوته من بَريته ، وأن يتمّم عليك نعمته ويَشفعَ لك ما خوّلك من ·نعمته بالنعمة التي يؤمَنُ معها الزوالُ في جِواره ومُرافقةِ أنبيائه· والسلام عليك ورحمةُ الله (١) .

تمت

* تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب والحمد لله أولا وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة ان شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته .

www.alkottob.com

كتمان السر
وحفظ اللسان

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ ، فإنّي تصفّحتُ أخلاقَك وتدبّرتُ أعراقَك وتأمّلتُ شيمك ، ووزنتُك فعرفتُ مقدارك وقوّمتك فعلمتُ قيمتك ، فوجدتك قد ناهزتَ الكمال وأوفيتَ على التمام وتوقلت(١٧) في درج الفضائل ، وكدت تكونُ منقطع القرين وقاربت أن تلفى عديم النظير ، لا يطمع فاضل أن يفوتك ولا يأنف شريفٌ أن يقصّر دونك ولا تخشع عالمٌ أن يأخذ عنك .
ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع واهمال لأمرين هما القطبُ الذي عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقّ بالعذل

www.alkottob.com

وأقمن (١٨) بالتأنيب ، ممّن لم يسبق شأوك ولم يتسنم رتبتك ، لأنّه ليس ملوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكثير . ولا يهتمُّ بإصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفسادُ على دهره ولا يُحاسب على الزلة الواحدة من لا يُعدُّ منه الزللُ والعثار ولا يُنكر المنكرُ على من ليس من أهل المعروف ، لأنّ المنكر اذا كثر صار معروفاً ، واذا صار المنكرُ معروفاً صار المعروفُ منكراً . وكيف يُعجَبُ ممّن أمره كلّه عجب . وانّما الإنكارُ والتعجّب ممّن خرج عن مجرى العادة وفارق السنة والسجيّة ، كما قال الأوّل : خالف تذكر ، وقيل : الكامل من عُدّت سقطاته ، وقيل : من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المغبوط . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتُك أمس خير بني معدٍّ   وأنت اليوم خيرٌ منك أمس
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً   كذاك تزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

وقال آخر في معنى :

أنت أمرؤٌ همّك المعالي   ودلوُ معروفك الربيعُ
وأنت من وائلٍ صميمٌ   كالقلب تحنى له الضلوعُ
في كلّ عامٍ تزيدُ خيراً   يشيعُه عنك من يُشيعُ

والأمران اللذان نقمتُهما عليك : وضعُ القول في غير موضعه وإضاعةُ السرّ بإذاعته . وليس الخطرُ فيما أسومُك (١٩) وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرفُ في دهري – على كثيرِ عددِ أهله – رجلا واحداً ممّن ينتحلُ الخاصّة ويُنسبُ إلى العِليَة ويطلبُ الرياسة ويخطبُ السيادة ويتحلّى بالأدب ويُديم الثخانة والزماتة والحِلمَ والفخامة ، أرضى ضبْطَه للسانه وأحمَدُ حياطتَه لسرّه . وذلك أنّه لا شيء أصعبُ من مكايدة الطبائع ومغالبة الأهواء ، فإنّ الدولة لم تزل للهوى على الرأي طولَ الدهر ، والهوى هو الداعيةُ إلى إذاعة السرّ وإطلاق اللسان بفضل القول . وإنّما سُمّي العقلُ عقلاً وحِجراً – قال الله تعالى هل في ذلك قسمٌ لذي حِجرٍ – لأنّه يزُمُّ اللسانَ ويخطِمُه ويشكلُه ويزبنه (٢٠) ويقيّد الفضلَ ويعقِلُه عن أن يمضي فُرُطاً في سبيل الجهل والخطإ والمضرّة ، كما يُعقلُ البعيرُ ويُحجرُ على اليتيم . وإنّما اللسانُ ترجمانٌ للقلب والقلبُ خزانةٌ مستحفَظةٌ للخواطر والأسرار وكلّ ما يعيه ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ وما تولّده الشهوات والأهواء وتنتجه الحكمةُ والعلمُ . ومن شأن الصدر – على أنّه ليس وعاء للأجرام ، وإنّما يعيي بقدرة

www.alkottob.com

الله لا يعرفُ العبادُ كيف هي – أن يَضيقَ بما فيه ويستثقلَ ما حمل منه ، فيَستريحَ إلى نَبْذه ويَلذّ إلقاءه على اللسان ، ثم لا يكادُ أن يَشفيَه أن يُخاطِبَ به نفسَه في خلَواته حتّى يُفضيَ به إلى غيره مِمّن لا يرعاه ولا يحوطُه ، كلّ ذلك ما دامَ الهوَى مُستَولياً على اللسان واستعمل فضول النظر فدَعت إلى فُضولِ القول .

فإذا قهرَ الرأيُ الهوى فاستولى على اللسان منعه مِن تلكَ العادة ورده عن تلك الدربة وجشمه مؤونةَ الصبر على ستر الحلم والحِكمة . ولا شيء أعجبُ مِن أن المنطِق إحدى مواهبِ الله العظام ونِعمه الجِسام ، وأنّ صاحِبها مَسؤولٌ عنها ومحاسَبٌ على ما خُوّل منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها في ذِكره وطاعته والقيامِ بقسطه وحجته ووضعها مواضِعَ النفع في الدِينِ والدُنيا والانفاقَ منها بالمعروفِ لفظةً لفظةً وصَرْفَها عن أضدادِها . فلم يَرْضَ الانسانُ أن عطّلَها عمّا خُلِقتْ له مِمّا ينفعُه حتى استعملها في ضدّ ذلك مِمّا يضرهُ ، فاجتَمعَ عليه الإثمانِ اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كنَزَه ومَنعه مِن حقه ، فوجبَ عليه إثمُ المنع وإن كان لم يَصرفه في معصية ، ثم صرَفه في أبواب الباطل والفِسق ، فوَجبَ عليه إثمُ الانفاقِ منها . وهذه غايةُ

الغبنِ والخسران ، نعوذُ بالله مِنه .

فاللسانُ أداةٌ مستعملة لا حمدَ له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمدُ للحلم واللومُ على الجهل ، فالحلمُ هو الاسمُ الجامعُ لكل فضل وهو سلطان العقلِ القامعِ للهوَى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشر وإسقاط طيشِ الخرق بأحق بهذا الاسم ولا أولى بهذا الرسم *من قمع فرطِ الرضا وغلبة الشهوات والمنعِ من سوء الفرح والبطر ومن سوء الجزع والهلع وسرعة الحمد والذم وسوء الطبع والجشع وسوء مناهزة الفرصة *وفرط الحرص على الطلبة وشدة الحنين والرقة وكثرة الشكوى والأسف وقربِ وقتِ الرِضا من وقتِ السخط ووقت السخط من وقت الرضا ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف وفي غير نفع ولا جدى .

واعلم يقيناً أن الصمت سرمداً أبداً أسهل مراماً – على ما فيه من المشقة – من إطلاق اللسانِ بالقول على جِهةِ التحصيل والتمييز والقصدَ للصواب ، لِما قدمنا ذكره من عِلة مجاذبة الطباع ولأن من طَبعِ الانسان محبة الإخبارِ والاستخبار . وبهذه الجبلة التي جبل عليها الناس نقلت الاخبار عن الماضين الى الباقين وعن الغائب الى الشاهد ، وأحب الناس أن *ينقل عنهم ونقشوا خواطرهم في الصخور واحتالوا لنشر

كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ولم يحضر آيات الرسول . وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطىء مقام العيان ، وعرفت البلدان والاقطار والامم والتجارات والتدبيرات والعلامات ، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة الى قبول الأخبار عن الرسل وسلماً الى التصديق وعوناً على الرضا بالتقليد . ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الاخبار وحلت هذا المحل . ولكن الله عز وجل حببها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء داعية للجماع ولذة الجماع سبيلاً للنسل والرقة على الولد عوناً على التربية والحضانة وبهما كان النشوء والنماء ، وحب الطعام والشراب سبباً للغذاء والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعسُر على الانسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة والانقياد لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطبائع . فاعتراه الكربُ لكتمانِ السر وغشيه لذلك سُقمٌ وكمدٌ يُحسُّ له في سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل وحكة الجرب ومثل لسع الدَّبْر (٢١) ووخز الأشافي ، على قدْر اختلاف مقادير الحلوم والرزانة والخفة . فإذا باح بسرِّه فكأنه أُنشط من عقال . ولذلك قيل : الصدرُ

إذا نفث برأ ، مثلا مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدَّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولنا : طُبعَ الانسانُ على حبِّ الإخبار والاستخبار ، حجةٌ له على الله ؛ لأنه طُبع على حبِّ النساء ومُنع الزنا وحُبِّبَ اليه الطعامُ ومُنع من الحرام ، وكذلك حُبِّب اليه أن يخبر بالحقِّ النافع ويَستخبرَ عنه ، وجعلتْ فيه استطاعة هذا وذاك ، فاختار اهوى على الرأي .

ومما يؤكد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم *ما رواه عن بعض فقهائهم أنه كان يحملُ أخباراً مستورةً لا يحتملها العوامُّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرزُ الى *العَرى فيحتفر بها حفيرةً يُودعها دَنّاً (٢٢) ثم ينكبُّ على ذلك الدنِّ فيحدِّثه بما سمع فيُروِّح عن قلبه ويرى أن قد نقل سرَّه من وعاء الى وعاء .

وكان الأعمش سيِّىء الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويسومونه نشر ما يحبُّ طيَّه عنهم وتكرار ما يحدِّثهم به ويتعنَّتونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل . فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه وتطلعت الاخبار الى الخروج منه ، فيُقبل على شاةٍ كانت له في منزله ، فيحدِّثها

www.alkottob.com

بالأخبار والفقه ، حتى كان بعضُ أصحاب الحديث يقول : ليت أني كنت شاة الاعمش .

وشكا هشامُ بنُ عبدِ الملك ما يجدُ من فقد الأنيس المأمون على سرّه ، فقال : أكلتُ الحلو والحامض حتى ما أجدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النساء حتى ما أبالي امرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بَقيتْ لي لذّةٌ الا وجودَ أخٍ أضعُ بيني وبينه مؤونة التحفّظ .

وقال مُعاوية لعَمْرو بنِ العاص : ما اللذّة ؟ قال : تأمرُ شبابَ قريشٍ أن يخرُجوا عنّا ، ففعل . فقال : اللذةُ طرح المروءة . وقد صَدَقَ عمْرو ، ما تكونُ الزماتة والوقارُ إلا بحمْلٍ على النفس شديد ورياضةٍ متعبة . وقال بعض الشُعراء :

ألم ترَ أنّ وُشاةَ الرجال لا يَدَّعون أديماً صحيحا
فلا تفْشِ سرّك إلا إليك فإنّ لكلّ نصيحٍ نَصيحا

والسرُّ — أبقاك الله — اذا تجاوَزَ صَدْرَ صاحبه وأفلتَ من لِسانه إلى أذُن واحدة ، فليس حينئذٍ بسرّ بل ذاكَ أوْلى بالاذاعة ومفتاحُ الشرّ والشُهرة . وانّما بينَه وبينَ أن يَشيعَ ويستطير أن يُدفعَ الى أذُن ثانية ، وهو مع قِلّة

المأمونين عليه — وكربِ الكِتمان — حريٌ بالانتقال اليها في طرْفة عَين . وصَدرُ صاحبِ الأذُن الثانية أضيَق وهو الى افشائه أسرع وبه أسخَى وفي الحديثِ به أعذر والحجّة عنه أدْحَض ، ثمّ هكذا منزلةُ الثالثِ من الثاني والرابع من الثالث أبداً الى حيثُ انتهى . هذا أيضاً اذا استعْهد المحدثُ واستكتم وكان عاقلاً حليماً وناصحاً ووادّاً ، فكيف اذا أُخبر ولمَ يُؤمر بالكتمان وكانَ ممّنْ يمشي بالنّمائم ويحبّ افشاء المعايب ، وكان ممن ينطوي على غِشّ أو شحناء أو كان له في اظهاره *اجتلاب نفعٍ أو دفعُ ضرر . فاللوم إذ ذاكَ على صاحبِ السرّ أوجب *وعمّن أفضى به إليه أدلّ* ، لأنّه كان مالكاً لسرّه فأطلقَ عِقاله وفتح أقفاله وسرّحه ، فأفلتَ من قيْده ووِثاقه وصار هو العبدُ القنُّ المملوكُ لمن ائتَمنَه على سرّه وملّكه رقّ رقبته . فإن شاء أحسن مِلكتَه بحفظِ ذلك السرّ فجزّ ناصيتَه وجعله رَهينةً ليومِ *عتبه عليه . وقلّ مَن يُحسنُ المِلكة ويحرسُ الحرّية أو يضبطُ نفسَه ، فإنّه ربّما لم يُخرجه غِشّاً فأخرجه سُخفاً وضَعفاً . وان أساء المِلكة وَختَر (٢٣) الأمانة *أطلقَ السرّ واسْترْعاه مَن هو أشدُّ له اضاعةً فسَفَكَ الدَم وأزال النِعم وكشفَ العَورة وفرّق بين الجميع ، وان كان المُضيع لسرّه *ألومَ . قال

www.alkottob.com

الشاعر :

اذا ضاق صدرُ المرء عن سرّ نفسه
فصدرُ الذي يُستودَعُ السرّ أضيقُ

فمَنْ أسوأ حالاً وأخسرُ مكاناً وأبعدُ من الحزم ممّن كان حُرّاً مالكاً لنفسه فصيّر نفسَه عبداً مملوكاً لغيره مختاراً للرقّ من غير أسر ولا قسْر . والعبيدُ لم يَصبرُوا على الرقّ الا بذُلّ الأسرِ والسّباء . ومن كان سِرُّه مَصوناً في قلبه ، يُطلبُ اليه في الحديث به فأخرَجه عن يده ، *صار هو الطالب الراغب الى من لا يُوجبُ له طاعة ولا يُفكر له في عاقبة ولا يتحرّز له بمصيبة . وكلّما كانت اذاعتُه لأسراره أكثر كان عددُ مواليه أكثر وشقاؤه بخدمتهم أدْوم . فإذا كان أصلُ السرّ معلوماً عند عِدّة أو أقلّ من العدّة فما أعسرَ استتارَه ، غير أنّه لا لومَ على صاحبِ الجناية فيه ، *اذ كان ليس هو الذي أفشاه ولا مِنْ قِبَله عُلِم .

ولو أنّ أوْزَنَ الناس حِلماً مَلَكَ لِسانه وحصّن سرّه وقلّل لفظَه ، ما قدر على أن يملكَ لحظَ عينيه وسَحنَةَ وجهِه وتغيّر لونه وتبسّمَه أو قُطوبَه ، عندما يجري به من ذكر ذلك السرّ أو خطَر بباله منه ، فيبدُو في وَجْهِه ومخايلِه اذا عَرَض ذكره أو سنح له نظيرٌ أو مِثل أو حَضر

مَن له فيه سَبَب ، الاّ بعدَ التصنّع الشديد والتحفّظِ المُفرِط.
فإذا كان يُعرَف مِن هذه الجهات وما أشبهَها ويُطّلعُ عليه بتظنّن *المرجّمين والمتعقّبين للأفعال والأقوال *والنظر في مَصادرِ التدبير ومَخايلِ الأمور ، فيفشُو مِن هذه الجهات أكثر مما تُفشيه ألسُنُ المذاييع *المبذر ، فكيفَ اذا أطلق به اللسانُ وعوّدَ اذاعتَه القلبُ والعادةُ أملَكُ بالأدَب .
وربّما أدركه الحَدْسُ وقيضه الظنّ ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة بأنْ يُذكرَ له طرَفٌ منه ويُوهَمَ أنّه قد فشا وشاع فيُصدّق الظنّ فيجعله يقيناً ويفسّرُ الجملةَ فيصيّرها تفصيلا فيُهلك نفسَه ويُوبقها . ورُبّ كلامٍ قد ملأ بطونَ(٢٤) الطوامير قد عُرِف جملتُه وما فيه الضّررُ منه بسَحاءةٍ أو *طابَعٍ أو لحْظةِ مُطّلعٍ في الكتاب أو حرفٍ تبيّن من ظَهْره . فاستيقظْ عِندَ هذه الأحوال واستعملْ سُوء الظنّ بجميع الأنام . فإنه رُوِيَ عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : الحزمُ سوء الظنّ . وقيل لثقيف : بِمَ بلغتُم من الشّرف والسُّؤدد ? قالوا : بسُوء الظنّ . فلا تعتمد على رجلٍ في سرّك تحمد عقله دونَ أن تحمَد وُدّه ونصحه ، فإنّ الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذي لُبّ بمؤتيكَ نُصحه ولا كلُّ مُؤتٍ نصحه بلبيب.

ولقد استحسنَ الناسُ من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك بنِ مروان فأوقع بالحجّاج عنده وسبّه . فلمّا خرج من عندِه تخبّر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأنّبه، وقال : ما يؤمنُك أن يُخبر أميرُ المؤمنين عبدُ الملك الحجّاجَ بما قلتَ فيه — ومرجعك الى العراق — فيَضْغَنه عليك ؟ قال : كلا والله اني ما رَطلتُ بيدي قطُّ أحداً أرزنَ منه .

وهذا واللهِ — أبقاك الله — الغلطُ البيّن والغدرُ الملصق وتحسينُ فارطِ الخطأ ، لأنّه ليس كلُّ راجحٍ وعاقلٍ بناصح لصاحب السرّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمرُه اليه أهمّ وشأنُه أولى . والأعلى من الناس لا يكلّف الأدنى هذه المؤونة، وانما يفعلُها الأدنون بالأعلين رغبةً ورهبةً وتحسّناً عندهم لحاجتهم اليهم .

وأكثرُ من يُذيعُ أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم وحاشيتُهم وصبيانُهم ، ولهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذي يودعه خليفةٌ في عامل له يلحقُهُ زَينُه وشَينُه أحرى أن لا يكتمه. وهذا سبيلُ كلّ سرّ يُستودَعه الجِلّة والعظماء ومَن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقُه اللائمة .

وقال سليمانُ بنُ داود في حِكمته : ليكنْ أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك واحداً من ألف (٢٥) . وليس معنى

الحديث أن تعُدّ ممّن تعرِف ألفاً وتُفضيَ الى واحدٍ بسرّ ان لم يكنْ ذلك الواحدُ موضِعاً للأمانة في السرّ ، لكنّه قيل : رجلٌ يساوي ألفَ رجل ورجلٌ لا يُساوي رجلاً ، وكقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يوجَدُ فيها راحِلة . فكلّ ذلك يُرادُ به أنّ الفضل قليلٌ والنقص *قليل لا على نِسَب ما يتلقّاه الاجتماعُ من هذه الأعداد ، لأنّا قد نجدُ الرجل يوزن بالأمّة ونجدُ الأمّة لا تساوي قُلامة ظُفرِ ذلك الرجل . فإذا كان من تقعُ عليه هذه الشريطةُ معدوماً سيّما مَن يُوثق بحلمِه وعقله وأمانته ونُصحه ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في السرّ الذي يُضمرُ ولا يَحرُمُ عليه كتمانُه ، ومن قد وَأى على نفسِه بالسرّ والحِفظ ، فإنه ليس كلُّ من ضُمّن فلمْ يَضمنْ ضامناً ولا من استُودع فلم يَقبلْ *مُستحفَظاً ولا من استخلِف فلم يَخلف خائناً ، وانّما يلحقه الحمدُ والذمُّ والأجر والاثم اذا ضَمِنَ الأمانةَ ثمّ خترَها . فكأنّ القومَ قالوا : لا تُودِعَنّ سرّك أحداً ، والاّ فمتى تجدُ رجلاً فيه الصِفة التي وصف بها مِسكينٌ الدارميُّ نفسَه حيثُ يقول :

اني امرؤٌ منّي الحياءُ الذي ترى
أنوءُ بأخلاقٍ قليلٍ خداعُها

www.alkottob.com

أواخي رجالاً لستُ أُطلِعُ بعضَهم
على سرّ بعضٍ غير أني جِماعُها

يظلّون شتّى في البلاد وسرُّهم
الى صخرةٍ أعيا الرجال انصِداعُها

وقيل لرجلٍ : كيفَ كتمانُك للسرّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفِنُه فيه الى يومِ النشور . وقال الآخر :

* واكتمُ السرّ فيه ضربة العنق *

وهذه صفاتٌ موجودة بالأقوال معدومة بالأفعال ، والمغرورُ من اغترّ بما يعدُه الواعدُ منها دون أن يَبلوَ الخبر . والذي جرّبناه ووجدناه أنّ أكثر من يُفضى اليه بالشيء يبلغُ من اذاعته ونشره ما لا يبلغُه الرسولُ المستَحفَظ المعنيّ بتبليغ الرسالة المحمودُ المُجازى على أدائها ، حتى ربما كان لا يبلغُ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصدَ للبلاغة من الرجال المعروف بالنميمةِ والتقتيت (٢٦) فيوهِمُه أنه قد استحفظه السرّ فيشيعُ على لسانه كما يشيع الضوء في الظلمة . وهذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحبّ أن يشيع سلامه ، فقال : من أنمُّ أهلِ مكة ؟ قيل له : جميلُ بن النُحيت ، فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتُمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكة أحدٌ لم يعلمْ بإسلام عمر رضي الله عنه . ثم يكون من أكثر

الأعوان على اظهار السرّ الاستعهاد فيه والتحذيرُ من نشره ، فإنّ النهى أغرى لأنه تكليفٌ مشقة ، والصبر على التكليف شديد وهو خطِر ، والنفسُ طيّارة متقلبة تعشق الإباحة وتُغرمُ بالإطلاق . ولعلّ رجلاً لو قيل له لا تمسحْ يدك بهذا الجدار ، وهو لم يمسحها به قطُّ غُرِيَ بأن يفعل . وكذلك ما حُدّث به من السرّ فلم يؤمر بستره لعله ألا يخطر بباله ، لأنه موجودٌ في طبائع الناس الوُلوعُ بكل ممنوع والضجرُ بكلّ محصول . فنريدُ أن نعلمَ لِمَ صار الانسانُ على ما مُنع وان كان لا ينفعه أحرص منه على ما أبيحَ من غير علةٍ ولا سببٍ *الا امتهان ما كثر عليه واستطراف* ما قلّ عنده ، ولِمَ أقبل على من ولى عنه وولى عمّن أقبل عليه ، ولِمَ قالوا : اذا جدّت المسألة جدّ المنع . وقال الشاعر :

الحرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ
وليس للمُلحفِ مِثلُ الرَدّ

ولِمَ صار يتمنى الشيء وينذرُ فيه النُذور وينقطعُ اليه شوقاً ، فإذا ظفِر به صدّ عنه وأخلق عنده ، ولِمَ زهد الملوكُ فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس . فنقول : انّ الله تبارك وتعالى جعل لكلّ نفس مبلغاً من الوُسع لا يمكنها تجاوزه ولا تتسع لأكثر منه ، فكان معها فيما دون الوسع الفقرُ وخوفُ الإخوان وفيما تجاوزه عزُّ الغنى *وأمنُ العدم .

www.alkottob.com

وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج اليها وأعظمت من استغنى عنها ، وجعلها توّاقة مشتاقة مطرفة ملالة كثيرة النزاع والتقلب *يستحكم عليها العنت (٢٧) ويبتلي خبرها وصبرها من جزعها* . ولولا هذه الخلال سقطت المحن، فهي تعظم القليل بالضرورة اليه ان كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق ان كان من طرف شهواتها ، فان صنوف الشهوات كثيرة ولكل صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه ، ويتعجب من الغريب النادر ويضحكها البديع الطارىء ، الا أنه اذا كثر الغريب صار قريباً ، واذا تجاوز المطلوب مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهرياً وفضلاً استخفت به وقل في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتد اليه الفقر والحاجة وان قل ضرره ، وأهونها عليها ما استغني عنه وان عظم خطره ، وجعل لما يتوق اليه ويشتاقه مكاناً من قواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً وقضى ذلك الأرب وطراً مما كان طمح اليه وروي مما كان ظامئاً اليه ، انصرف عنه وقلاه (٢٨) وحال عشقه بغضاً وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك أن الدنيا دار زوال وملال ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة ، وانما الثبوت الدائم لدار القرار . فالسآمة تلحقها في محبوبها كما

تلحقها في مكروهها ، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب والباه ، فإنه ليس شيء أبغض الى من يتناهى فيه الى غايته من النظر الى ناحيته فضلاً عن ملابسته ، الى وقت عودة السبب الاول .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه *طعماً ولا ريحاً وعاد عليها بالضرر . فبعض النظر يعمي والصوت الشديد يصم والرائحة المنتنة تبطل المشم والاطعمة الحارة المحرقة تبطل حاسة اللسان . وتتطرف كل واحدة منها ، فبين الطيب عند من بعد *عهده به أو الجماع والسماع وبينه عند من* هو مغموس فيه بون بعيد جداً في الحلاوة وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ، فإنه كلما كثر كان أشهى وأعجب . لان قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يريده أهل القناعة والزهادة ، وانما يراد لقمع الحرص ، والحرص لا حد له ولا نهاية ، لانه سعي لا لحاجة وايضاع لا لبغية . وهكذا قال رسول الله ﷺ : لو ان لابن آدم واديين من ذهب لابتغى اليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب . وقال بعض الحكماء

www.alkottob.com

من كان لم يَغْنَ بمـا يُغنيه
فكلُّ ما في الارض لا يُغنيه

قال الله عزّ وجل ويُحبّون المال حباً جماً . وقال وانه لحب الخير لشديد . وقال الشاعر :

والناسُ ان شبعت بُطونُهم
فعيونُهم في ذاك لا تشبع

فأمّا الحديثُ الذي جاء : لا يَشبعُ أربعٌ من أربعةٍ : أرضٌ من مَطر وعينٌ من نظر وأنثى من ذكر وعالمٌ من علم ، فإن العين لا تشبعُ في الجملة كما لا يشبعُ الخيشومُ من الاستنشاق . فأمّا مَن* يشبع من صنفٍ مما يراه دون صنفٍ فإنه يَشبعُ ويَروَى ويَصدُّ ويصدِفُ الى غيره . وأمّا العلمُ فإنه أوسع من أن يُحاطَ بـه ، فمن طلبه لشرفه وفخره فإنه لا حدّ له ولا نهاية ، ولم يزدَدْ له طلباً الا ازداد فيه رغبة ، ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاهُ منه اليسير . على أنه لا يملك من كثُر علمه أن يرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً ، وقد يَملُّ كل شيء كما يَملُّ وتملُّ العين أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان طالبُ علمٍ وطالبُ دنيا . وهذه *النّهمة تدل على الخروج عن العقل لان *النهم تجاوز القدر .

.وأما الحرص على الممنوع الذي لا ينتفع به والعجب مما لا يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء ، وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه . وإنما ذلك من فعل من استوحش من الحجة وشرد عن علم العلل والأسباب .

وافشاء السر انما يوكل بالخبر الرائع والخطب الجليل والدفين المغمور والأشنع الأبلق ، (٢٩) مثل سر الأديان لغلبة الهوى عليها وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضاد والولاية والعداوة ، ومثل سر الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجلة ، لنفاسة العوام على الملوك وأنهم سماء مظلة عليهم أعينهم اليها سامية وقلوبهم بها معلقة ورغباتهم ورهباتهم اليها مصروفة . ثم عداوات الاخوان ، فإنما صارت العداوة بعد المودة أشد لاطلاع الصديق على سر صديقه واحصائه معايبه ، وربما كان في حال الصداقة يجمع عليه السقطات ويحصي العيوب ويحتفظ بالرقاع ، ارصاداً ليوم النبوة (٣٠) واعداداً لحال الصريمة . وقد شكا بعض الملوك تنقّب العوام عن أسرار الملوك فقال:

ما يريـد الناس منا ... ما ينام الناس عنا
لو سكنـا باطن الار ... ض لكانوا حيث كنا
انمـا همهم أن ... ينشروا ما قد دفنا

www.alkottob.com

ولم تر حب الطعن على الملوك والتجسس عن أخبارهم وعشق نشر المعايب واستحلال الغيبة ظاهر في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم الا من رجح حلمه وعظمت مروءته وظهر سؤدده واشتد ورعه ، حتى قال بعضهم : الغيبة فاكهة النساك. ورووا عن بعضهم أنه قال : الفاسق لا غيبة له . وقال آخر : أترعون من ذكر الفاسق ؟ اذكروه يعرفه الناس .

ولم تر الله جل ثناؤه رخص في اغتياب مؤمن ، بل ضرب المثل في الغيبة بأكره ما تكرهه النفوس وما تختار منه الموت على الحياة ، فقال ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واغتياب الناس جميعاً خطة جور في الحكم وسقوط في الهمة وسخافة في الرأي ودناءة في القيمة وكلفة عريضة وحسد ونفاسة قد استحوذت على هذا العالم وغلبت على طبائعهم وتوكدت لسوء العادة عندهم ولعلو الشر على الخير . وكثرة الدغل والنغل (٣١) والحسد في القلوب . فلست ترى منها ناجيـا ، أما ناظر بعين عدل وانصاف فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه ، وأما .ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد في العيوب في عدوه ما يعينه على التخرص عليه فيقويها ويزيد فيها ، وان عدم الحق تقول وقبح الحسن وزاد في قبح القبيح . والحديث

كله الا ما لا بال به ذكر الناس ولغو وخطل وهجر وهذاء وغيبة وهمز ولمز . وقال بعض الحكماء لابنه : يابني انما الانسان حديث فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل سر في الارض انما هو خبر عن انسان وطيء عن انسان ، فله في الغيبة أكثر الحظ ، وجلها كلفة لا ضرورة . يرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه وغفر ذنوبها وألغى عيوبها ، وقصد قصد غيره فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله وهجن تدبيره وتعجب من مقابحه وجهد نفسه في تفقد أموره ، ليس ذلك عن عناية بصلاحه ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ولا أنه مسيطر عليه ولا محمود عنده على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم . وهذا جل حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو الى فضول القول وفضول الخواطر تبعث على اللهو والخطل . ولو كان الرجل لا يتكلم الا بما يعنيه ولا يتكلف ما قد كفيه ، قل كلامه . ولو حكم العدل في أموره وفيما بينه وبين خالقه وبينه وبين اخوانه ومعامليه ، لطاب عيشه وخفت مؤونته والمؤونة عليه . فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل ولا أروح على القلوب من الانصاف ، ولا أمرّ من الظلم ولا

www.alkottob.com

أبشع من الجور .

وقال بعض المتقدمين : انما يعرف الظلم من حكم به عليه .

ومن استعمل العدل دله على أن الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم اذا فعله بهم مثل الذي يجد اذا ظلم ، فكره لهم ما كره لنفسه فأنصف ولم يظلم . ويتظالم الناس فيما بينهم بالشره والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا الى الحكام وقد أطلق لهم تصريفها ، وأخلاقهم وأماناتهم التي ردت اليهم الاحكام فيها ما جنايته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم .

وقال بعض الحكماء : ان من أصعب الاعمال انصافك في نفسك ، ومؤاساتك أخاك في مالك ، وذكر الله ، أما اني لا أعني قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر – وان ذلك لمن ذكر الله – ولكن ذكره عندما يعرض من الامور ، فإن كان طاعة لله فعلته وان كان معصية لله اجتنبته .

وروي عن بعضهم أنه قال : ثلاثة في ظل عرش الله يوم لا ظل الا ظله : رجل لم يعب أخاه بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه فإنه لايصلحه حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، ورجل لم يقدم يداً ولا رجلا حتى يعلم أفي طاعة الله هو أم في معصيته ، ورجل لم يلتمس من الناس الا مثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تنصفوا ؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله عبداً أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله وشغله عيبه عن عيوب الناس .

وقال عيسى بن مريم : يا بني اسرائيل أيرى أحدكم القذاة في عين أخيه ويغبى عن الجذع المعترض في عينه (٣٢) .

وقيل لعيسى بن مريم ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي ما لا يعنيني .

وقال عمرو بن عبيد : أعيتني ثلاث خلال : تركي ما لا يعنيني ودرهم من حله وأخ اذا احتجت الى ما في يديه بذله لي .

وما أحق من أحصيت ألفاظه وليس من قول يبدر منه الا لديه رقيب عتيد ، ومن أحصيت عليه مثاقيل الذر واستشهد عليه جلده وجوارحه ، أن يضبط لسانه . وقد جاء في بعض الآثار : من عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه .

وكل امرىء فحسيب نفسه غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الاهل والولد والقرابة . وقال الله جل ثناؤه – وقوله الحق – : كل امرىء بما كسب رهين . وقال : يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم .

www.alkottob.com

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الا مع السيف والسوط وقال بعض الحكماء : شيئان لا صلاح لأحدهما الا بالآخر : اللسان والسيف .

أنت اذا تأملت أكثر ما يتناجى به المتحدثون ، وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ويكترث لما لا يكرثه ويعنى بما لا ينفعه ولا يضره ، وأكثر المجيبين يجيب ولم يسأل ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل من سألك لافتضح ولو حاجه فيما ادعى ووقفه لانقطع . قال الله عز وجل : قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين .

ومر هشام بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول وعليه حلة ذيالة يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : ياهذا انك قد أفسدت ثوبك ، قال وما يضرك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيته في النار ، قال : وما ينفعك من ذلك ؟ فأفحمه أقبح الافحام . ولو تهيأ للمتكلفين في كل وقت مثل صرامة هشام لازدجر من به حياء منهم ولقلت الفضول والكلف والغيبة .

قالوا : وليس من أحد أذل من مغتاب ، لأنه يخفي شخصه ويطامن حسه ويغض من صوته ، ولا يريد بما يناله من ذلك الا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدري من النبيل ؟ هو الذي اذا رأيته هبته واذا غاب عنك اغتبته . وهي لعمري سبيل العظماء عند العوام والملوك عند الرعية والسادة عند العبيد ، فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيهته (٣٣) اياه الا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه . ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة الا ممن يخاف سطوته كان أعذر ، ولكن اللؤم المتمكن منه يحمله على اغتياب عبده وأمته فضلاً عن كفئه ونظيره ، ويغتاب الرجل عند عدوه والمشاحن له مساعدة له بالسخف وتقرباً اليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طول أو يلتمس منه على ما تقرب به اليه جزاء أو شكوراً . ثم لعله ينكفىء الى الذي اغتابه وقصبه (٣٤) من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعلة أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الذلة التي يجدها في نفسه والضعف في منته ، كما يعظم الغني بغير ثمن ويحتقر الفقير بغير سبب ، فمتى كوشف أو عوتب لبسته ذلة أخرى من الكظة بالمعاذير الكاذبة والاعتصام بالايمان الفاجرة ، ومن كانت هذه دربته فهو حري ان يطلع على دخلة أمره فلا يقبل منه عذر ولا يصدق في قول ولا حلف ، وقد تسربل الذلة وتدرع الخضوع . وليس من

www.alkottob.com

www.alkottob.com

تفكر فقد لها . فانظر بأيّ الأمرين قطعت عمرك : أبالحكمة أم باللغو . وانظر كيف وصف الله تعالى مَن أثنى عليه بخير من عباده فقال : والذين هم عن اللغو معرضون . وقال : وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . وقال : وإذا مروا كراماً . وصان عنه أسماع أهل الجنة وألسنتهم فقال : لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت . وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج .

وقال بعض الحكماء: لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكى عنه محرّفاً فيضطر إلى أن يقول : ليس هكذا قلت انما قلت كذا وكذا فيكون انكاره اقراراً واعترافه بما حُكي عنه شاهداً لمن وشى به وادعاء التحريف غير مقبول منه الا أن يأتي ببيّنة *بها ، لكان ذلك من أكثر فضائل الصمت . وربما ذكر رجل الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذكر اثماً له ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتحريض ، فيسفك الدم الحرام أو يعظّم الجرح الصغير ، بل ربما ضحك وتبسم فأغرى وحرّض وأثم وأوبق.

قال بعض الشعراء :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحد
مجاهرة أو قال عندي في سرّ
فإن أنا لم آمر ولم أنهَ عنكما
ضحكت له حتى يلجّ ويستشري

وقالت العرب : مَن كفي شر لقلقه وذبذبه وقبقبه (٣٤) فقد كفي الشرّ .

وهذا باب لولا أن نشغل القارىء لهذا الكتاب بغير ما قصدنا اليه وعزمنا عليه لأتينا عليه ، وهو كثير موجود لمن طلبه . وجملة واحدة فيها كفاية ، فإنما تختلف الألفاظ التي تجعل كسوة لتلك المعاني . والا فإنك اذا نظرت الى جميع شرور الدنيا وجدت أولها كلمة غارت فجنت حرباً عواناً كحرب بكر وتغلب ابنَي وائل وعبس وذبيان ابنَي بغيض والأوس والخزرج ابنَي قيلة والفجار الأول والفجار الثاني وعامة حروب العرب والعجم . واذا تأمّلت أخبار الماضين لم تحص عدد من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه . وليس العجب ممن أفضى بسره الى مَن ليس له بموضع ممن تقدمت معرفته وزالت الشكوك عنه في أمره ، ولكن العجب عين العجب ممن استنام بسره الى من لم يقدم معرفته ومن أنس اليه*عن اللقاء واللقائين دون معرفة العين والاسم والسبب والنسب ، فانخدع في أوّل

www.alkottob.com

وهلة وغبن عقله قبل أن يغبن دينه وماله وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ، فإن البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض السماوي وما خولته الأقدار سراً بعد اجتهاد صاحبه رأيه وحيلته في طلب الخير . وصواب تدبيره فيه أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وان كان كل مكروه مراً بشعاً . وانما الكرب اللازم والداء العياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة والنقص والذلة غم الندامة والأسف على ما فرط منه ، اذ كان الجاني على *نفسه بيده . ولهذا الكلام نظر نكره التطويل به والمعنى واحد . وانما تحتاج من هذا ومثله مما قدمنا ذكره في الكتاب الى حفظ السر ووزن القول ، والى هذا أجرينا وله قصَدنا . ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف مما فيه لكان بإذن الله كافياً لمن كان له لُبٌ وعقل ، لكن الاحتجاج أوكدُ والإيضاح أبلغ ، والحظ في هذا القول كلّه لمن عقله والآخذُ به أوفر *منه ممن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه انما يجتنى ثمرة الصواب *ويختلف برفقه من صدق قوله بفعله . فإنّ الحكمة قولٌ وعمل ، وانما حظُّ القائل ما لم يستعمل عمله وقوله حظُّ الواصفين ، وحسنُ الصفة تزول بزوالها وتنقطع بانقطاعها ، ومُدّتها – الى أن يملّها القائل والسامع – *يسيرة . والأفعال المحمودة متصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة

وبعد الوفاة ومذخورة للأعقاب وحديث جميلٌ ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثرُ من ذلك كلّه توفيق الله وتسديده ، فإنّ القلوبَ في يده والخيرات مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل(*) .

* تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

www.alkottob.com

فلسفة الجدّ والهزل

من تصنيف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

الى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(*) جُعلتُ فِداكَ ، ليس من *أجل اختياري النَّخلَ على الزرع أقصيتَني ولا على مَيلي الى الصَّدَقة دون اعطائي الخراج عاقبتَني ولا لبُغضي دَفعَ الاتاوة والرِضا بالجزية حرمتَني ، ولستُ* أدري لِمَ كرهتَ قُربي وَهويتَ بُعدِي واستثقلتَ روحي ونفسي واستطلتَ عُمري وأيّامَ مُقامي ، ولِمَ سرّتك

www.alkottob.com

سيئتي ومُصيبتي وساءتك حسَنتي وسلامتي ، *نعم حتى ساءك
*عزائي وتجمّلي بقدر ما سرّك جزَعي وتضجُّري ، وحتى
تمنّيتَ أن أخطِىءَ عليك فتجعل خطأي حُجّةً لك في
ابعادي وكرهتَ صوابي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً *لك
الى *تقريبي . *فإن كان ذلك هو الذي أغضبك وكان هو
السبب لِمَوجدتك* ، فليس — *جعلتُ فِداك — هذا الحِقد
في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة *من شَكل هذه الجريمة .
ولو كان اذ لم يكن في وزنه وقع قريباً واذ لم يكن عِدلَه
وقع مشبهاً ، كان أهون في موضع الضرر وأسهل في مَخرج
السماع . فأيّ شيء *بقّيتَ للعدوّ المُكاشِف وللمنافق
المُلاطِف *وللمعتمِد المُصِرّ *وللقادر المُدِلّ ؟ ومَن عاقب
على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة الاصرار وعلى
الخطأ بعقوبة العَمد . وعلى معصية *المُسِرّ بعقوبة معصية
*المُعلِن ؟ ومَن لم يُفرّق بين الأعالي والأسافل وبين الأقاصي
والأداني عاقب على الزنا بعقوبة *السَرِقة وعلى القتل بعقوبة
القَذف . ومَن خرج الى ذلك في باب العِقاب خرج الى مِثله
في باب الثواب ، ومَن خرج من جميع الأوزان وخالف جميعَ
التعديل كان بغاية العقاب أحقّ *وبه أولى .

والدليلُ على شِدّة غيظك وغَليان صدرك ، قوةُ حركتك

وابطاءُ فترتك وبُعدُ الغاية في احتيالك . ومن البرهان *على
ثبات الغضب وعلى كظلم الذنب* تمكّنُ الحقد ورسوخُ الغيظ .
وبُعد الوثبة وشدّة الصولة . وهذا البرهانَ صحيحٌ ما صحّ
النظم وقام التعديل واستوت الأسباب . ولا أعلم ناراً أبلغ في
احراق أهلها من نار الغيظ ولا حركةً أنقض لِقوّة الأبدان من
طلب الطوائل *مع قلّة الهدوء والجهل بمنافع الجمام واعطاء
الحالات أقسامها من التدبير . *ولا أعلم تجارةً أكثر خسراناً
ولا أخفّ ميزاناً ، من عداوة العاقل *العالم *واطلاق لسان
الجليس المُداخِل والشِعار دون الدِثار والخاصّ دون العامّ .
والطالبُ — *جعلتُ فِداك — بعَرَض ظفرٍ ما لم يخرج
المطلوب واليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألّا تخرج
الى العدوّ الا ومعك من القُوى *ما يغمر الفَضلة التي *يُنتجها
له الاخراج . ولا بدّ أيضاً من حزمٍ يحذّرك مُصارِعُ البغي
*ويُخوّفك ناصرَ *المظلوم .

وبعدُ — *أبقاك الله — فأنت على يقين من *موضع ألم الغيظ
*من نفسك ، والغيظُ عذابٌ ، *ولربما زاد التشفي في الغيظ
ولم ينقص منه . ولستَ على يقين من نفوذ سهمك في *صيدك
كما أيقنتَ بموضع الغيظ من صدرك . والحازم *لا يلتمس شفاء
غيظه باجتلاب ضعفه *ولا يُطفىء نارَ غضبه *تأخُّرُ عقوبة

www.alkottob.com

مَن أغضبه ولا يسدّد سهمه الا والغرضُ ممكن والغاية قريبة ولا يهرب *والمهرب معجزه . انّ سلطان الغيظ غَشوم وانّ حُكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طِباع شيطان والهوَى يتصوّر في صورة امرأة ، فلا يُبصر مَساقط العَيب ومواقعَ الشرف الا كلُّ معتدل الطبـــاع ومعتدل الأخلاط ومستوي الأسباب . والله لقد كنت أكره لك سَرَف الرضا مخافـــة جواذبه الى سرف الهوى ، فما ظنُّك بسرف الغضب وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن *قد تعوّد اهمالَ النفس ولم يعوّدها الصبرَ ولم يعرفها موضعَ الحظ في تجرُّع *مرارة العفو . *وانما المراد من الأمور عواقبها لا عواجلهـا . ولقد كنت أُشفق عليك من افراط السرور فما ظنّك بإفراط الغيظ . وقـــد قال * بعض الناس : لا خير في طول الراحة اذا كان يورث الغفلة ولا في *طول الكفاية اذا كان يؤدّي الى المعجزة ولا في كثرة * الغنى اذا كان يخرج الى البلدة .

جُعلتُ فِداك ، انّ داء الحزن وان كان قاتلاً فإنـــه داء مماطل *وسقمه سقم مطـاول ومعه من *التمهُّل بقدر قسطه من *أناة المِرّة (٣٦) السوداء . وداء الغيظ سفيه *طيّاش وعجول فحاش يعجل عن التوبة *ويقطع دون الوصية ومعه

*من الخرق بقدر قسطه من التهاب المِرّة الحمراء . *والعجول يخطىء وان ظفر ، فكيف به اذا أخفق . على أنّ اخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أنّ ظفره لا ينتقص من مقدار زلله . وأنت روحٌ كما أنت وحشيّ مِن قرنك الى قدمك ، وعمل الآفة في الدقاق والعتاق أسرع وحدّها عن الغلاظ الجفاة أكلّ . فلذلك اشتدّ جزَعي لك من سلطان الغيظ وغلبته .

والله لو كنتُ ابتلعت مِرارَ بابك وأبطلت *بمر البـاطل ورددت القطائع كلها ونقضتُ الشروط بأسرهـــا وأفسدتُ تاجك وقتلتُ كل شطرنجيّ لك ورفعتُ من الدنيا فراهـة الخيل وجعلتُ المروج كلهـــا حِمىً وكنتُ *جذام المردان ورسام الأولاد ومسختُ جميع الجواري في صورة أبي رمـــلة ورددتُ شطاط خلقك الى جعودة *أبي حشـــة وكنتُ أوّل مَن سَنَّ بَيعَ الرجـــال في النخاسين وفتَحَ باب الظُلم لأصحاب المظالم وحولتُ اليك عقل أبي دينار وطُبِعتُ على بيان مانويه *وأعنتُ على موت المعتصم وغضبتُ *لمصرع الأفشين واستَجبتُ *للديك الأفرق وأحببتُ صالح بن حُنَين وأحوجتُكَ الى حـــاتم الريش وكان أبو *الشماخ صديقي والفارسيّ من شيعتي *ورفستُ حمـزة رفسةً شديدة وركلتُ حمزة ركلةً صعبة ، (٣٧) لكان *ما تركبُني بـــه سَرَفاً

ولكنتَ في هذا العقاب *متعدّياً .

جُعلت فداك ، لا تتعرّض لعداوة عقلاء *الرواة ولضغينة حُفّاظ المثالب وللسان مَن قد عُرف *بالصدق والتوخّي وبقلّة الخَطَل *والتكسُّب ، ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ووجدتَ المذهب عنه واسعاً . ولا تُعاقِب وَادّاً وان اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجُّر . واصبر على خَلَقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف *غَرَرٌ ومَلالة الصديق أفن . والعلم *بأقدار الذنوب غامض وحدود الذنوب في العقاب خَفِيّة . ولن يَعرف العقاب مَن يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة في *الأقدار . واذا أردتَ أن تعرف مقدار الذنب اليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر في علّته وفي سببه والى معدنه الذي منه نجم وعُشّه الذي منه دَرَجَ ومغرسه الذي فيه نَبَتَ ، والى جهة صاحبه في التتايُع (٣٨) والتبرع وفي النزوع والثبات ، والى قِحته عند التقريع والى حيائه عند التعريض والى فطنته عند *الرشق والتودية . فإنّ فضل الفطنة ربما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الاقدام والاحجام . فكل ذنبٍ كان سببه الدالّة وضيق *صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مرارٍ ، *من جهة تأويل أو من جهة *غلطٍ في المقادير أو من طريق *فرط الأنَفَة وغَلَبة طباع الحميّة *من بعض الجفوة أو لبعض *الأثرة ، أو مِن جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له مِن عمله ، وأنه مُقصّر به مؤخّر عن مرتبته ، أو كان مُبلّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب وفي هذه المجاري ، فليس يقف عليها كريم ولا يلتفت لها حليم . ولست أسميه بكثرةِ معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سبب له الاّ البِغضة ، فلو لم تَرضَ لصاحبه بعقابٍ دون قعر جهنم لعَذَرَك كثير من العُقلاء ولصوّب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علّته طبيعة الداء وخُلقه الشرارة والتسرّع ، فاقتله قتلَ العقارب وادمغه دمغَ رؤوس الحيّات . واذا كان ممن لا يُسيء فيك القولَ ولا يرصدك بالمكروه ، الاّ لتعطيه على الخوف وتمنع عِرضك من جهة التقيّة ، فامنعه جميل رفدك واحتلْ في منعه من قبل غيرك ، فإنك ان أعطيته على هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته في سبّ نفسك واستدعيتَ الألسنةَ البَذيئة الى عِرضك وكنتَ

www.alkottob.com

عونا لهم عليك . وكيف تُعاقبه على ذنبٍ لـك شطرُه وأنت
فيه *قسيمُه ، الاّ أنّ عليك غرمة وله غنمه .

ومن العدل المحض والإنصـاف الصحيح أن *تحطّ عن
الحسود نصف عقابه وأن *تقتصر منه على بعض مقداره، لأنّ
ألم حسَد لك قد كفاك مؤونة *شطر غيظك عليه .

وأمّا الوادّ فلا تعرض له البتة *ولا تلتفت لفتَه ولو أتى
على الحرث والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغترّ بقوله
انـّي وادّ * ولا تحكم له بدعواه اني جدّ وامق (٣٩)* ،
وانظر أنت في حديثه والى مخـارج لفظه * والى لحن (٤٠)
قوله والى طريقته وطبيعته والى خُلقه وخليقته والى تصرّفه
وتضمّنه والى توقفه وتهوّره ، وتأمّل مقدار جزعـه من قلة
اكترائك وانظر الى غضبه فيك ولك والى انصرافـه عمّن
انصرف عنك وميله الى من مال اليك والى تسلـّمه من الشرّ
وتعرّضه له والى مُداهنته وكشف قناعه . بـل لا يقضي له
بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع اقبال من أمرك ،
وان طالت الأيام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوي
فيه الازمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله
مقصورة على محبّتك ومحنوة على نصيحتك بالعلـل التي توجب
الأفعال والاسباب التي تسخر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة

في الصنيعة والاسباب الموجودة مع مولى العَتاقة . فإنّ عللها
خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذي لم يزل
يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيما اذا
كانت الصنيعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عُذرتها . فإن أنت لم
تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها اليه ، ولم
تقض له بأقصى النهاية مع ترادُف هذه الاسباب وتكامُل هذه
الدلائل وتعاوُن هذه البرهانات ، فكل خـبر بيّنة زور وكل
دلالة فاسدة . وقد قال الاول : دلائل الامور أشدُّ تثبيتاً من
شهادات الرجال . الا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة
برهان ، لانّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ،
وشهادة الانسان لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ،
ما كان الإمكان قائماً .

وبعـد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يُحقد الإخوان
ومـتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ التمر يورث الهجران ،
ومتى تميزوا هـذا التميز وتهالكوا هذا التهالُك ومتى صار
تقديم النَخلة مِلـّة وتفضيل السنبلة *نِحلة ، ومتى صار الحكم
لنعجة نَسباً وللكرمة صهراً ، *ومتى تكون فيها دِيانـة
نستحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حَميّة .

وقـد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع ناب ومن

حرب بُعاث في مِخرف تمرٍ ومن حرب غطفان في سبق دابّة ، فجئتنا أنت بنوعٍ من العجب أبطلَ كلّ عجب وآنسَنا بكل غريب وحسّن عندنا كل قبيح وقرّب عندنا كل بعيد . فإن جهلتُ - أعزّك الله - غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن عجزتُ عن احتمال عقابك فمثلي ضجّ مما لا يُطيق حملَه ، ولا عارَ على جازع إلاّ فيما يمكن في مثله الصبر ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح في مثله الفكر . وليس هذا أول شَرَكٍ نصبتَه ولا أوّل كيدٍ أرغتَه ، ولا هي بأوّل زُبيةٍ غطّيتَها وسترتَها وحيلةٍ أكمنتَها وربصتها . وقد كانت التقيّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في عقوبةٍ تُشمِت العدوّ القادم ويُنادي بها العدوُّ الحادث ، والأناة أبلغ في الحزم وأبعد من الذمّ وأحمد مغبّةً وأبعد من خُرْق العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعتَه . وقد أخطأ من قال :

قد يُدرك المتأني بعض حاجته
وقد يكونُ مع المستعجل الزلل

بل لو قال : والمتأني بدركِ حاجاته أحق والمستعجل بفَوت حاجاته أخلق ، لكان قد وفّى المعنى حقه وأعطى

اللفظ حظّه ، وان كان القول الأول موزوناً والثاني منثوراً . ولولا أنه اشتق المستعجلَ من العجَلة لما قرَنه بالمتأني ، وينبغي أن يكونَ الذي غلّطه قولهم : ربّ عجلةٍ تهبُ ريْثاً ، فجعل الكلام الذي خرج جواباً عندما يعرضُ من السبب كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً . فإذا سمّيتَ العمل عجلة وريْثاً فاقض على الريث بكثرة الفوت وبقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بقلة النجح وبقدر ذلك من الخرق والريث والأناة في بلوغ الأمل *وادراك النعمة كانتهاز الفرصة واهتبال الغِرّة ، * والأناة وان طالت* وانتهاز الفرصة وان كان في غاية السرعة ، فليس من جنس العجلة . ورُبّتَ كلمة لا توضع الا على معناها الذي جعلت حظّه وصارت هي حقّه *والدالة هي *عليه دون غيره ، *كالحزم والعلم والحلم والرفق والأناة والمداراة والقصد والعدل والانتهاز *والاهتبال وكاليأس والأمن وكالخرق والعجلة والمداهنة والتسرّع والغلوّ والتقصير . *ورُبّتَ كلمة تدور مع *خُلّتها وتتقلّب مع *جارتها وبإرادة صاحبتها وعلى قدر ما تقابل من الحالات وتلاقي من الأسباب ، كالحب والبغض والغضب والرضا والعزم والارادة والاقبال والادبار والجد *والفتور ، لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ويكون محموداً ويكون مذموماً .

www.alkottob.com

وصاحب العجلة – *أعزك الله – صاحب تغرير ومخاطرة : *ان ظفر لم يحمده *عالم وان لم يظفر قطعته اللاوم . والريث أخو المعجزة ومقرون بالحسرة وعلى مَدرّجة اللائمة . وصاحب الأناة *ان ظفر نفع غيره بالغنم ونفع نفسه بثمرة العلم ، *وطاب ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولدُه ، وان حُرم فمبسوطٌ عذرُه ومُصوّبٌ رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجدُ من عزّ حزمه *ونبل صوابه ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء وبعذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله – وهو على خُراسان – حين مرّ به وهو يدهق في جبّته : ان كنتَ تُعطي مَن ترحم فارحم مَن تظلم . انّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر مَن ليس له ناصر الا الله ، ولا جُنّة الا الثقة بنزول التغيُّر ، ولا سلاحَ الا الابتهال الى مولى لا يعجزه شيء . يا أسدُ انّ البغي يصرع أهله ، وانّ الظلم مصرعُه وخيم ، فلا تغترّ بإبطاء العقاب من ناصر متى شاء أن يُغيث أغاث ، وقد أملى لقوم كي يزدادوا اثما . وجميعُ أهل السعادة امّا سالم من ذنب وامّا تارك الإصرار . ومَن رغب عن التمادي فقد نال أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية له الا دار *الشقوة . وسواء – جُعِلتُ فداك – ظلمتَ بالبطش والغشم

أو ظلمتَ بالدحس والدسّ ، فشاور لبك ، وناظر حزمك ، وقف قبل الوثبة ، واحذر زلّة العالم . وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقلد طبيعته الاستطراف وجعل الخطرة ذنباً والذنب ذنوباً ومقدار الطرفة اصراراً والصغيرَ كبيراً والقليل كثيراً ، عاقب على المتروك الذي لا يُعبأ به وبلغَ بالبطش الى حيث لا بقيّة معه ، ورأى أنّ القطيعة التي لا صلة معها والتخليج الذي لا تجمّل معه الحزمُ المحمود ، وأن الاعترام في كل موضع هو الرأي الأصيل . وقال أيضاً : مَن كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائدَه الذي لا يكذبه والمتأمّر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما يهواه على ما لا يهواه ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم يُنصف المملول المبعَد من المستطرف المقرّب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجها ويُصوّرها في كتاب مقروء أو لفظ مسموع ، ثم يعرضها على جهابذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار الا مَن لا يدري أي النوعين يبغي وعلى أيهما يحامي ، وأيهما داؤه . فإن لم يستعمل ذلك ، بما فضل له من سُكر سوء العادة ، لم يزل متورّطاً في الخطأ مغموراً بالذمّ .

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، أو كأنك

www.alkottob.com

تشير عليّ من غير أن تنصني وتقول : اني لأعجب ممن ترك دفاتر عمله متفرقة مبثوثة وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرُّم وكيف لا يمنعها من التفرق، وعلى أن الدفتر اذا انقطعت حزامته وانحل شداده وتخرمت ربطه ولم يكن دونه وقاية ولا جُنّة تفرّق ورقه، واذا تفرّق ورقه اشتدّ جمعه وعسر نظمه وامتنع تأليفه ، وربما ضاع أكثره. والدفتان أجمع وضم الجلود لها أصونُ والحزم لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشباه أن تؤلف ، فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسناً والاجتماع يحدث للمتساوي في الضعف قوة. فإذا فعلتَ ذلك صرتَ متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . واذا كانت منظومة ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج الى تقليب القماطر على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤونتها وقلّت فكرتك فيها ، وصرفتَ تلك العناية الى بعض أمرك وادّخرتَ تلك القوة لنوائب غيرك . وعلى أنّ ذلك أدلُّ على حبّك للعلم واصطناعك للكتب ، وعلى حُسن السياسة والتقدُّم في احكام الصناعة . وقلتَ : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن وسُوَرَه في مُصحف ، ولم يَدَعوا ما فيه

مفرقاً في الصدور ولا مبدداً في الدفاتر ومفرقاً في القماطر ،على ذلك أجمع المسلمون والسابقون الاولون والائمة الرشيدة والجماعة المحمودة ، فتوارثه خلف عن سلف وتابع عن سابق وصغير عن كبير وحديث عن قديم . ولم أشك في أنها نصيحة حازم ومشورة وامق أو رأي حضر أو حكمة نبغت أو صدر جاش فلم يملك أو علم فاض فلم يرد، استعمله من استعمله وتركه من تركه. فلما أخذت بقولك وصرت الى مشورتك ، وأكثرت حمد الله على إفادتك من العلم وحظ عنايتك من النقل ، وجمعت البعض الى البعض والشكل الى الشكل ، وتقدمت في استجادة الجلود وفي تمييز الصناع وفي تخير الساعات ، وغرمت المال وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً مصحفاً وأجملتها صنفاً صنفاً ، ورأيت أني قد أحكمت شأني وجمعت الى أقطاري ، ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ، ولأن ذلك أبقى على نور البصر وأصلح لقوة الناظر ، إذا كل واحد من هذه المصاحف قد اعجز يدي بثقل جرمه وضيق صدري بجفاء حجمه ، وإذا ثقل أنكأ الصدر وأوهن العظم . وإذا أنا إن نظرت فيها وأنا جالس سدرت عيني وتقوس ظهري

واجتمع الدم في وجهي وأكردت بصري على غير جهته وأجريت شعاع ناظري في غير مجراه . وقد علمت – أبقاك الله – مع خبرتك بمصالح الأمور ومواقع المنافع والمضار ثم بمصالح العباد والبلاد ، أن من كان على مقطع جبلٍ أو على شرفات قصرٍ ، فأراد رؤية السماء على بعدها وجد ذلك على العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قربها وجد ذلك على العين عبأً ثقيلاً . فإن بدا لي أن يقابل عيني به العبد أو تواجهني به الأمة كلفت أخرق الناس كفاً وأقلهم وفقاً وأكثرهم التفاتاً وأحضرهم نعاساً وأقلهم على حال واحدةٍ ثباتاً وأجهلهم بمقدار الموافقة ولمقادير المقابلة وبحط اليد ورفعها وإمالتها ونصبها ، ثم رأيت في تضجرهم وتكرههم وفرارهم منه ما صير تجشمي لثقل وزنه ومقاساتي لجفاء حجمه أهون على يدي وأخف على قلبي فإن تعاطيته عند ذلك بنفسي فشقاءٌ حاضر وإن ألزمته غيري فغيظ قاتل ، وحتى صارت الحال فيها داعية الى ترك درسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومن شحذ الطبيعة وتمكين حسن العادة . ولو لم يكن في ذلك إلا الشغل عن خوض الخائضين والبعد عن لهو اللاهين ، ومن الغيبة للناس والتمني لما في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض

عظيماً . ومتى ثقل الدرس تثاقلت النفس وتقاعست الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال أحدث الهجران ، وإذا تطاول الكد رسخ الزهد ، وفي ترك النظر عمي البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال حد الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه على قدر غريزة العقل تصح الجوانح وتسلم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة وبعد العهد بالتصرف يحدث العي ويظهر العجز ويبطىء الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغت ما أردت ونلت ما حاولت ، فحسبك الآن من شج من يأسوك ومن قتل من يقتل فيك .

جعلت فداك ، إنه ليس يومي منك بواحدٍ وأنا على عقابك أوحد ، وليس ينجيني منك معقل وعلٍ ولا مغارة سبعٍ ، ولا قعر بحرٍ ولا رأس طودٍ ، ولا سنى (٤١) ولا دغل ولا نفق ، ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجيني منك إلا مفازة (٤٢) المهلب ، فإن أعرتني قلبه وعلمتني حيلته وأمكنتني من سكينته ، وإلا فأنا أول من ابتلعته تلك الحية . ولا والله إن بي قوة على الثعبان فكيف التنين ، ولا على القزة فكيف الأصلة . أعفني من حية المهلب ثم اقتلني أي

قتلة شئت . إن احترست منك ألفيت لنفسي كداً شديداً وغماً طويلاً ، وطال اغترابي وافتراق أُلاّفي ، وتعرضت للعدو وتحرشت بالسباع ، وإن استرسلت إليك لم ترَ أن تقتلني إلا شر قتلة وآلمها ولم تعذبني إلا بأشد النقم وأطولها ، ولو أردت ذبحي لاخترت الكليل على المرهف والتطويل على التذفيف ، حتى كأني علمت عليك شاه مات أو أكلتُ سبعةً وأطعمتك واحدة .

ولقد تقدمت في المكر واستظهرت علي في الكيد ، حتى توليت ذلك في صغار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمري ، وعلمت أن الدرس لليل وأن الا . . . . للنهار ، وأن الكتاب لا يُقرأ ليلاً إلا والنيران زاهرة والمصابيح مقربة ، وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره ، فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم ناراً ، وأن المحرور المحترق والممرور الملتهب واليابس المتهافت ، اذا كان صاحب كتب ودرس فإنه لا يجد بداً من الصبر على ما يحرقه ويعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها ، فخيرتني بين العمى والجهل ، وما فيها حظٌ لمختار .

وقلت اذا سخن بدنه سجن بوله ، واذا سجن بوله جرح مثانته وأحرق كليته وطبخ فضول غذائه وجفف ما فضل عن

استمرائه ، فأحاله حصاً قاتلاً ،صخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيق الإحليل ، فإذا حصاه يورثه الأسر ، وفي ذلك الأسر تلف النفس أو غاية التعذب . وقلت : فإن ابتليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وان ذهب عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

جُعلت فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا التتبع لغوامض المسألة والتعرض لدقائق المكروه ، وما هذا التغلغل في كل شيء يُخمل ذكري وما هذا الترقي الى كل ما يحط من قدري ، وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني ومن الكاغد الخُراساني . قل لي لِمَ زينت النَسخَ في الجلود ولِمَ حشَّيتني على الأدَم ، وأنت تعلم أن الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن ، ان أصابها الماء بطلت وان كان يوم لَثِقٍ استرخت ، ولو لم يكن فيها الا أنها تبغض الى أربابها نزول الغيث وتكره الى مالكيها الحيا لكان في ذلك ما كفى ومنع منها ، وقد علمتَ أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطراً ولا يقطع فيها جلداً . وان نديت فضلاً عن أن تُمطَر وفضلاً عن أن تغرق ، استرسلت وامتدت ، ومتى جفت لم تعد الى حالها الا مع تقبض شديد وتشنج قبيح . وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً وأحمل للغش : يغش الكوفيُّ بالواسطي والواسطي

www.alkottob.com

بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها ، وهي أكثر عقداً وعجراً وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة اليها أسرع وسرعة انسحاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحبُ علمٍ أن يحملَ منها قدرَ ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعيرٍ ، ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع زاده . وقلت لي : عليك بها فانها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى على تعاور العارية وعلى تقليب الأيدي ، ولرديدها ثمن ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجدد . وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق وان كان فيها كل حديثٍ طريف ولطفٍ مليح وعلمٍ نفيس ، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلوداً ، ثم كان فيها كل شعرٍ بارد وكل حديث غثٍ لكانت أثمن ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البرد ، وهن أصلح للجرب ولعفاص الجرة وسداد القارورة . وزعمت أن الأرضة الى الكاغد أسرع ، وأنكرت ان تكون الفارة الى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها الى الكاغد اسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرّة في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر

الخفاف في المحمل إلى المصاحف التي تثقل الأيدي وتحطم الصدور وتقوّس الظهور وتعمي الأبصار . وقد كان في الواجب أن يدعَ الناسُ اسمَ المصحفِ للشيء الذي جمع القرآن دون كلّ مجلّد ، وألاّ يروموا جمع شيء من أبواب التعلم بين الدفّتين فيلحقوا بما جعله السلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم .

دع عنك كلّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يحيي ذكري ويحوي ميراثي ، ولا أخرجُ من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراءٍ يرصدني وابن عمّ يحسدني ، ولا يرتعُ فيه المُعدّلون في زمان السوء ، ولا تصطنع فيه الرجال ويقضي به الذمام ، فقد رأيتَ صنيعهم في مال المفقود والمناعة والوارث الضعيف ومن مات بغير وصية .

جُعلتُ فداك ، إنّ النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما مسّ تلك الأصلاب ، لأنّ الرحم الماسّة والقرابة الملتصقة واللحمة الملتحمة وإن أملت التركة ونازعت إلى الورث فمعها ما يأطرها ويثنيها ويحزنها ويبكيها ويحرّك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد إلى أبيه حال أبيه كانت من أبيه وابن العم الذي ليس بالبعيد فيحتك من حسده وليس بالقريب الحنوّ على رحمه . وسببه

www.alkottob.com

الجاذب له إلى تمنّي مماتي أمتن من سببه إلى تمني بقائي ، فهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرقّة والعطف ، وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامي عليك لقربه منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به ضعفك واجترأ بعد ضعفك عليه عدوّه ، فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوّي ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه .

جُعلت فداك ، ما كان عليك من بُنيّ صغير يكون لي ، ولا سيما ولست عندك ممّن يدرك كسبه أو تبلغ نصرته أو يعاين برّه أو يؤمّل إمتاعه . وما كان عليك مع كبر سنّي وضعف ركني أن يكون لي ريحانة أشمها وثمرة أضمها ، وأن أجد إلى الأماني به سبباً وإلى التلهّي سلّما ، وأن تكثر لي من جنس سرور الحالم وبقدر ما يمتع به راجي السراب اللامع ، حتى حبّبت قصر عمري إلى وليّي وشوّقته إلى ابن عمّي ، وحتى زدت فيما عنده ، مع كثرة ما عنده وحتى صيّرني حُبّه لموتي إلى حبّ موته وتأميلُ مالي إلى تأميل فقره ، وحتى شغلتني كان يشغل عدوّي عنّي . وسواء أعبت عليّ أن لا يكون لي ولد قبل أن يكون ، أو عبت عليّ أن لا يكون بعد أن كان — فإنما يعذّب الله على النيّة والقصد وعلى التوخّي

والعمد — كما أنّه سواء أن تحتال في ألاّ يكون لي مال قبل أن أملكه أو احتلت في ألاّ يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدري ما كان وجه حبّك لإعناتي والتشييد بذكر تراثي والتنويه باسمي ، ولا لم زهّدتني في طلب الولد ورغّبتني في سيرة الرهبان ، فإذا أنت لم ترفع ذكري في الأغنياء إلاّ لتعرض ذنبي للفقراء ، ولم تكثر مالي إلاّ لتقوّي العلّة في قتلي ، فيالها مكيدة ما أبعد غورها ويا لها حفرة ما أبعد قعرها ، لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك وبعد الغاية .

والله لو دبّرها الإسكندر على دارا بن دارا ، واستخرجها المهلّب على سفيان بن الأبرد ، وفتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبّرها لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد ، ولو أذاعها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة ، ولو توجهت لكهّان بني أسد على دهاة قريش ، لقد كان ذلك من تدبيرهم نادراً بديعاً ولكان في مكايدهم شاذّاً غريباً ، وإنها لترتفع عن قصير في كيد الزبّاء وعن جذيمة في مشاورة قصير ، وما إخالها إلا وتدقّ على ابن العاص وتغمض على ابن هند ويكلّ عنها أخو ثقيف ويستسلم لها ابن سمية . هذا والله التدبير ، لا مخاريق العرّاف وتزاوير الكاهن وتهاويل

الحاوي ، ولا مـــا ينتجها صاحب الزرق (٤٣) (؟) ، بل تضلّ فيها رقى الهند وتقربها سَحَرة بابل (٤٤) .

فلو كنتَ – إذ أردتَ ما أردتَ وحاولتَ ما حاولتَ – رفعتَ قبل كل شيء المؤانسة ، ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعتَ البر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملتَ الحِرمان ، ثم صرّحتَ بالجفوة ، ثم أمرتَ بالحجاب ، ثم صرمتَ الحبل ، ثم عاديتَ واقتصدتَ ، ثم من بعد ذلـــك كلّه أسرفتَ واعتديتَ ، لكنتُ واحداً ممن يصبر أو يجزَع . فلعلّي كنتُ أعيش بالرفق وأتبلّغ بحُشاشة النفس وأعلّل نفسي بالطمع الكاذب . ولكنّ فُجاءات الحوادث وبغتات البلاء ، لا يقوم لها الحجرُ القاسي ولا الجبل الراسي ، فلم تدع غاية في صرفِ ما بين طبقات التعذيب إلا بلغتها ، فقد مِتُّ الآن فمع مَن تعيش ، بل قد قتلتَني فمن الآن تعاشر ! . كما قال ديوست المغني لكسرى حين أمر بقتله لقتله تلميذه بلهبذ : قتلت أنا بلهبذ وتقتلني ، فمن يطربك ؟ قال : خلّوا سبيله فإن الذي بقي من عمره هو الذي انطقه بهذه الحجة . ولكني أقول : قـــد قتلتني فمع من تعيش ؟ أمعَ الشطرنجيين ؟ فقد قـــال جالينوس : إياك والاستمتاع بشيء لا يعم نفعه .

إن الكلام إنما صار أفضلَ من الصمت لأن نفع الصمت لا

يكاد يعدو الصمتَ ونفع الكلام يعم القائلَ والسامعَ والغائب والشاهِد والراهِن والغابر . قالوا : ومما يــدل من فضل الكلام على الصمت أنك بالكلام تُخبر عن لصمتِ وفضلِه ولا تخبرُ بالضمت عن فضل الكلام . . ولو كان الصمت أفضــلَ لكانت الرسالة صمتاً ولكان عدم القرآن أفضلَ من القرآن ، وقد فرّق بينهما رسول الله صلى الله عليـــه وسلم وفصّل وميّز وحصّل حيث قال : رحِم الله امرءاً قال خيراً فغنِمَ أو سكت فسلم فجعل حظ السكوت السلامة وحدها ، وجعل حظ القول الجمع بين الغنيمة والسلامة ، وقـــد يسلم من لا يغنم ولا يغنم إلا من سَلِم (٤٥) .

فأمّا الدواب فمن يضع المركب الكريم الى الصـــ[illegible] الكريم ، ومَن يعدِل امتاعَ بهيمة بإمتاع أديب ؟ قالت ابنة النعمان . لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ في خـــير وشر من صاحب . ولما عزم بن زياد على الحقنة بعد أن كان تفحّشها قال له حارثة بن بدر : ما أجد أولى بتولّي ذلك من الطبيب . قال عبيد الله : كلا ، فأين الصاحب !

والله لو نتجت في كل عام ألف شبديز (٤٦) وقهرتَ في كل ليلة أربعة آلاف زَنبرَب وصار لـــك كل نهر المرك بدلاً من بعض بابـــك ، وأكلتَ رأسك الجنيد بن حـــاق الأشيم

واحتلت بين الغر من افراط الشبق ، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتلة . ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ولو عفوت البتة لكان أمثل . ان الاعتزام على قليل العقاب يدعو الى كثيره ، ومتبدىء العقاب بعرض لجاج ، وليس يعاقب الا غضبان ، والغضب يغلب العزم على قدر ما مكن ويحيّر اللب بقدر ما سلط ، والغضب يصوّر لصاحبه مثل ما يصور السكر لأهله ، والغضبان يشغله الغضب ويغلي به الغيظ وتستفرغه الحركة ويمتلىء بدنه رعدة وتتزايل أخلاطه وتنحل عقده ولا يعتريه من الخواطر الا ما يزيده في دائه ولا يسمع من جليسه الا ما يكون مادة لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله ولا يقصّر في عادته ، لما وسوس الى الغضبان ولا زين له ولما أغراه ولا فتح عليه ، اذ كان قد كفاه وبلغ أقصى مناه . وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء الا صرعه ولا ينازعه قبل انتهائه وادباره شيء الا قهره ، وانما يحتال له قبل هيجه ويتوثق منه قبل حركته ويتقدم في حسم أسبابه وفي قطع علله . فأما اذا تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ومن أعوانه سمعاً

وطاعة ، فلو سعطته بالتوراة ووجرته بالانجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن افراغاً وأتيته بآدم عليه السلام شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته ولتمنّى أن يعار أضعاف قدرته . وقد جاء في الأثر : ان أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب . قال قتادة : ليس يسكّن الغضب الا ذكر غضب الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . الا أن يريد الذكر باللسان ، ويسمى المتوجد غضبان والذكور حقوداً .

فلا تقف – حفظك الله – بعد مضيّك في عقابي التماساً للعفو عني ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله والشيطان على دينه ، ويعلم أن للعقل خصوماً وللكرم أعداء ، وأن من النصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك من عدوه ، وتمسك امساك من لا يبرىء نفسه من الهوى ولا يبرىء الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ولعقلك أن يهفو ، فقد زل آدم عليه السلام وهفا وعصى ربه وغوى وغرّه عدوه وخدعه خصمه وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه الى خلاف ثقته ، هذا وقد خلقه الله بيده وأسكنه في دار أمنه وأسجد له ملائكته ورفع فوق العالمين

www.alkottob.com

درجته وعلّمه جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لَغو كالظرف الخالي ، والاسم في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدَن والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له وشيئاً لا حِسّ فيه وشيئاً لا منفعة عنده . ولا يكون اللفظ اسماً الا وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ولا يكون اسم الا وله معنى . في قوله جلّ ذكره : وعلّم آدم الأسماء كلّها ، اخبار أنه قد علمه المعاني كلها . ولسنا نعني معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرابيح وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تتناهى . وليس لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم اسم ، الا أن تدخله في باب العلم فتقول شيء . ومعنى الأسماء التي تدور بين الناس انما وضعت علامات لخصائص الحالات لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصّ الخاصّ لا اسم له ، الا ان نجعل الاشارة الموصولة باللفظ اسماً . وانما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري انها لتحيط بها وتشتمل عليها . فأما العلوم المبسوطة فانما تبلغ الأسماء مبالغ الحاجات ثم تنتهي . فإذا زعمتَ أن الله تبارك وتعالى علّم آدم الأسماء كلّها بمعانيها فإنما يعني نهاية

المصلحة لا غير ذلك .

هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماويّ وأنت أرضيّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقّ بالقوة والفرع أولى بالضعف . فلستُ أسألك أن تمسك الا ريثما تسكنُ اليك نفسُك ويرتدُّ اليك ذِهنُك ، وحتى تُوازنَ بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحِلم وما يجلب من السلامة وطيبِ الأحدوثة ، وترى تصرُّم الغرض وما يُفضي لأهله من فضل القوة . على أنّ العقلَ اذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب المخمورَ اذا خرَج من سُكر شرابه والمنهزمَ اذا عاد الى أهله والمبرسَمَ اذا أفاق من برسامه . وما أشكّ أنّ العقل حين يُطلق من اساره كالمقيَّد حين يُفكّ من قيوده ، فإنّه يمشي كالنزيف ويحجِل كالغُراب . فإذا وجب عليك أن تحذرَ على عقلك مخامرةَ داءِ الغضب بعد تخلّصه وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلّصه من يده ، فما ظنّك به وهو أسير في مِلكه وصريع تحت كلكله ، وقد غطّه في بحره وغمره بفضل قوته .

وقد زعموا أنّ الحسن حضر أميراً قد أفرط في عقوبة بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يحفِل بكلامه وخوّفه فلم يتعظ بزجره ، فقال انك انما تضربُ نفسك ، فان شئتَ الآن

www.alkottob.com

فأقلّ وان شئت فأكثر . ومعاذ الله أن أقول لــك كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدي والمصمّم القاسي . ولكني أقــول : اعلم أنك تضرب مَن قد جعلك من قتله في حِلّ . وان كان القتلُ يحلّ باحلالِ المقتول ويسقطُ عنه عِقابه بهبة المظلوم ، ولو أمكن في الدين تواهب قِصاص الآخرة في الدنيــا ، وان كان ذلك مما تجوّدُ به النفس يومَ الحاجة الى الثواب والى دفــع العِقاب ، وكان الوفـــاء مضموناً ، لكنتُ أولَ مَن أسمحت بذلك نفسُه وانشرح به صدره .

جُعلتُ فــداك ، اعلم أني قـــد أحصيتُ جميع أسباب التعادي وحصلت جميع علل التضاغن ، الا علّة عداوة الشيطان للإنسان ، فاني لا أعرف الا مجازها في الجملة ولا أحقّ خاصتها على التحصيل ، وعلى كل حالٍ فقد عرفتها من طريق الجمــلة وان جهلتُها من طريق التفصيل . فأمّا هذا التجنّي فلم أعرفه في خاصٍ ولا عام .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات وتحاسُد الأشكال في الصناعات ، ومن أمتن أسبابهم الى الشرّ وأسرعها الى المروءة والعقل وأقــدحها في العرض وأحطّها على الدين ، التشاحّ على المواريث والتنازُع في تخوم الأرضين ، فــان اتفق أن يكون بين المتشاكلين في القرابــة كان السبب أقوى والداء

أدوى ، وعلى حساب ذلك ان جُمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابــة واستواء الحظّ في الصناعة . ولذلك كتب عُمرُ — رضي الله عنه — الى قضاتــه أن رُدّوا القرابات عن حر القضاء ، فان ذلك يورث التضاغُن .

ولم أعجب من دوام ظلمــك وثباتك على غضبك وغلظ قلبك ، ودُورُنا بالعسكر متجاورة ومنازلنا بمدينــــة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علمٍ واحـــد ونرجع في النحلة الى مذهبٍ واحـــد ، ولكن اشتدّ تعجُّبي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نتــاج ، وصناعتك جودة الخطّ وصناعتي جـــودة المحو ، وأنت كاتب وأنا أمّي ، وأنت خراجيّ وأنا عشريّ ، وأنت زرعيّ وأنا نخليّ . فـــلو كنتُ اذ كنت من بكر كنتُ من تميم كان لك الى العداوة سببٌ والى المنافسة سُلمٌ .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركين وأنا عَجول ، وأنت تدبّر لنفسك وتقيم أوَدَ غيرك وتتسع لجميع الرعيّة وتبلـــغ بتدبيرك أقصى الأمّــــة ، وأنا أعجز عن تــدبير نفسي وعـــن تدبير أَمَتي وعبدي ، وأنت مُنعِمٌ وأنا شاكر ، وأنت مَمــلِكٌ وأنا سوقــة ، وأنت

مصطنع وأنا صنيعة وأنت تفعل وأنا أصِفُ ، وأنت مقدم وأنا تابع ، وأنت اذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكفاء ، لم تقلْ بعد فراغك وانقطاع كلامك لو كنتُ قلت كذا كان أجود ولو تركتُ قول كذا لكان أحسن ، أمضيتَ الأمور على حقائقها وسلمتَ إليها أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم تندم بعد قولٍ ولم تأسف بعد سكوتٍ ، وأنا إن حكمتُ ندمتُ وأن جاريتُ أبدعتُ ورأيي كله دَبري . وأنت تُعدّ في الشطرنج زبرب وأنا في الشطرنج لا أحد .

وما أعرف ههنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلاّ في الايثار لخُبز الخشكار على الحوّاري والباقلي على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندعي الهندسة . فقد بلغ الآن من جُرمي في مُساواتك في خُبز الخشكار وإيثاري الباقلي والمعرفة بتقدير المدُن وإجراء القُنيّ ، أن أُنفى من جميع الأرض وانّ تجعَل في دمي الجعائل. فاني قد هجرتُ الخبز البتة إلى مواصلة التمر ونزلتُ الوبر بدلاً من المدَر .

دَعنا الآن فانك فارغ . إن الله يعلم وكفى به عليماً وكفى به شهيداً وكفى به حفيظاً ووكيلا وكفى بجرأةِ مَن يعلّمه ما لا يعلم جرأةً وتعرّضاً وكفى بحالهِ عند الله بُعداً ومقتاً . لقد أردت ان أفديك بنفسي في بعض كتبي ، وكنت

عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت أن من الخيانة لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة وأن أُريك أني قد جدت لك بأنفس علقٍ والعلقُ معدومٌ . ليس أن من قد فداك فقد جعل فداك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومَن أعلن الاجتهاد لك واستسر خلاف ذلك ، فقد نافق وخان وغش وألام ، واخلِق بمن أخلّ بهذه ألاّ يرعى حقا ولا يرجع إلى صحةٍ ولا إلى حقيقةٍ .

ثم أنت لا يشفيك مني السم المجهز ولا السم الساري فإنه أبعد غاية في التطويل وأبلغ في التعذيب، لا ولا لعاب الأفاعي وداهية الدواهي ، فإنه يعجز الرقى ويفوت ذرع الأطباء ، لا ولا نار الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة الا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم الا أن أرمى في سَوائه وفي أصطمّة ناره وفي معظم حريقه وفي موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكتفي بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى الا بعذاب آل فرعون أشد العذاب ، بل لا يرضيك الا عذاب ابليس الذي زين الختر للعباد وبثه في البلاد ، والذي خطّأ الرب وعانده ورد قوله وغيّر عليه تدبيره ، ولم يزدد الا شكا ولجاجة وتماديا واصرارا ، ثم لم يرض من

www.alkottob.com

الجد في مخالفة أمره وخلع العذار في شدة الخلاف عليه ، الا بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة المانعة من اسخاطه سبيلاً الى اسخاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلة الى اغضابه ، حيث قال : «فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين» .

فعليك – عافاك الله – بابليس إن كنت لله تغضب ، او عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشفى . لا ولكنك استغمرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرقا ، وتريد أن تتعلم فيّ معاقبة الأعداء . فان كنتَ الى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعف منّي وعبد الله بن عيسى أسوأ خُبراً منّي .

سبحان الله يسلم عليك حيدر الأفشين ويهلك عليك عمرو الجاحظ ، ويسود بك أبعد البعداء ويشقى بك أقرب القرباء ، وتتغافل عن مثل الجبال التماساً للتسلم وحباً للسلامة ، وتتغلغل الى المحقّرات طلباً للتعرض وحباً للشر . ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرماً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترثتَ لكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهأناذا بين يديك فكلني بخلّ وخردل ، فوالله إنك لتأكله غثّاً غير مريّ وخبيثاً غير شهيّ .

لا والله لكأنك وقعتَ على مطمورة وظفرتَ برأس خاقان . كنت أظن أن الرشاقة والحِلم لا يجتمعان وأن ظرف الانسان وإصالة الرأي لا يقترنان ، وأن النزق والخفة مقرونان بخفة البدن وأن الركانة والأناة مجموعان لصاحب السِمَن . حتى رأيتك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي واستبدلت فيك ضد ذلك الظن ، فتركتَني حتى إذا نازعتُ الرجال وتعرضت للشجى وشغلت نفسي بثلب الخصام وانقطعت إلى أصحاب القدود وجعلت عداوتي في تقديم القضاف ، وطال لساني بك وأظهرت الاستبصار في فضلك ، وجعلت مزاج أخلاطك هو الحجة واعتدالك هو النهاية وطبيعتك هي السكتة ، وزعمت أن منظرك يغني عن مخبرك وأن أولك يجلي عن آخرك ، شددتَ عليّ شدّة المهر الأرن وتسرعت اليّ تسرع الغرّ النزِق وألححتَ عليّ إلحاحَ الحنق . كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرع وبما تضاف إليه من سخف التبرع ، بعد أن تكذب قولي وتفسد خبري . وقد تقدّمتِ التجربة في أن الحديد لا يكون حقوداً وأن المصطنع لا يكون للصنيعة حاسداً ، فقصدتَ على رأسي إلى القياس الممتحن فأفسدته وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتها وإلى القضايا الصحيحة فرددتها .

وقد قالوا بأجمعهم : حالان لا يقبلان الحسد ولا يخلوان من الرشد ، حال الصنيعة لمصطنعه وحال المولى لمعتِقِه . فكيف إذا كان الصنيعة صديقاً وكان للخاصة محتملاً . وإنما صارت – أبقاك الله – أجزاء النفس وأعضاء الجسد – مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعد أماكنها – نفساً واحدة وجسداً واحداً ، لاستواء الخواطر ولايقافها على الارادة . فأنت وصديقك الموافق وخليلك ذو الشكل المطابق، مستويان في المحاب متفقان في الهوى متشاكلان في الشهوة ، وتعاونكما كتعاون جوارح أحدكما وتسالمكما كتسالم المتفق من طبائعكما، فاذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتل خليلك فقد اعتل نصفك بل النفوس المضمّنة كالمعاني المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها ، فموتي هو موت صديقي وحياتي هي حياة صديقي ، فلا تبعدنه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب. ولعل بعض طبائعك المخالِط لروحك أن يكون أعدى من كل عدو وأقطع من كل سيف وأخوف عليك من الأسد الضاري ومن السم الساري . ثم اعلم أنّ الموثق بمودته قليل . وقد صار اليوم المعتمد عليه في صحة العُقدة وفي كرم الغيب والعشرة عنقاء مُغرب . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلا أوجد منه ، وإني لأظن القناعة

كثر منه ، وما أكثر مَن جعل انقطاعَ سببه وضعفَ طمعه
نقطاع سببه قناعة. وقيل ليحيى بن خالد: أي شيء أقل؟ قال: ناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديقٌ قليل الآفات ثير الإمتاع شكور النفس يصيب مواضع المرَح . لا والله لن رف على ظهرها موضعاً للسر ولا مكاناً للشكوى ولا روحاً أنس بها ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرّفني من ميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يحتمل الغِنى، ومحتمل لفقر قليل ومحتمل الغِنى عديم .

إنّ الخير – أبقاك الله – في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك ه في أيام قلته ، وان الشر في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته . وأنت غريب في المصطنعين وأنا غريب في صنائع ، والغريب للغريب نسيبٌ ، ونسَبَ المشاكلة وقرابة طبيعة الموافقة أقرب من نسب الرَّحِم ، لأن الأرحام مولعة التحاسد لهجة بالتقاطع ، وإن التحابٌ على طبع المشاكلة والتلاقي على وفاق من الطبيعة ، أبعد من التفاسُد وأبعدُ من التعادي ، وسبَبُ التعادي عَرَضٌ في طبائع الغرباء وجوهر في طبائع الأقرباء .

واعلم أنك لا تزال في وحشة الى وحشة إلى غربة، الى غربة وفي تكدُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجد مَن تشكو إليه بثّك وتُفضي إليه بذات نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تُضحكك

رؤيتك له بقدر ما يضحك إخبارك إياه. فمَن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك. ولو أن شيبتي التي بها استعطفتك وكبرة سني التي بها استرحمتُك، اللتان لم يحدثا عليّ إلا وأنا في ذراك ولم يحلاّ بي إلا وأنا في ظِلك، لكان في شفاعة الكبرة واسترحام الضعف والوهنة ما يردعك عنّي أشدّ الردع ويؤثر في طباعك أبين الأثر، فكيف وقد أكرمتني جديداً ثم تريد أن تُهينني خَلَقاً، وقوّيتَ عظمي أغلظَ ما كان ثم تريد أن توهنه أرقّ ما كان. وهل هرمتُ إلا في طاعتك وهل أخلقني إلا مُعاناة خدمتك.

قال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: رأيُ الشيخ الضعيف أحبّ إلينا من جَلَد الشاب القويّ. وأنا أقول كما قال أخو ثقيفٍ: مودّة الأخ التالد وإن أخلق خيرٌ من مودّة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جِدّته. وقال عبدالملك بن مروان: رأيُ الشيخ أحبُّ إلينا من مشهد الغلام. وقال بعضهم: ليس بغائبٍ مَن شهد رأيه وليس بفانٍ مَن بقي أثره، وما كمّل العقلَ ولا وفّر التجربة شيء كنقصان البدن وكأخذ الأيام مِن قُوَى الأعضاء. وقال آخر: ما قبّح الرجالَ شيء كالوكال، ولا أفسد الكريمَ شيء كحب الاستطراف. وخير الناس مَن أتبع الغضب مواقع الذنوب،

وأتبع العِقاب مواقع الغضب، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى.

ولقد منحتُك جَلد شبابي كَمَلا وغرب نشاطي مقتبلاً، وكان لك مهناه وثمرة قواه، واحتملتُ دونك غرامه وعدمه وكان لك غُنمه وعليّ غُرمه، وأعطيتُك عند إدبار بدني قوة رأيي وعند تكامُل معرفتي نتيجة تجربتي، واحتملتُ دونك وَهنَ الكِبَر وأسقام الهَرَم. وخير شركائك مَن أعطاك ما صفا وأخذ لنفسه ما كدُر، وأفضل خُلطائك مَن كفاك مؤونتَه وأحضركَ معونتَه، وكان كلاله عليه ونشاطه لك.

وأكرم دُخلائك وأشكر مؤمّليك مَن لا يظنّ أنك تسمّي جزيلَ ما تحتمل في بذلك ومؤاساتك مؤونة ولا تتابُعَ إحسانك إليه نعمة، بل يرى أنّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ونعمة الوادّ المخلص فوق نعمة الجواد المغني، وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرمين به، حُسنَ نيّة الشاكر الوامق وحقّ تمني الواد العارف. ولو اقتضيتَ جميع حقوقك عليّ وأنكرتَ جميع حقوقي عليك، أو جعلت حقي عليك حقاً لك، ثم زعمتَ أن حقك لا يؤدّي إلى شكره وأن حقي لا يلزم حكمه وأن إحساني إساءة وأن الصغير من ذنوبي كبير وأن اللممَ مني إصرارٌ وأن خطأي عمَدٌ وأن عمدي كله كفرٌ وأن كفري

يوجب الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك ، وما اتسع قولي لأكثر من هذا العقاب ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي أن يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارىء النسم ، في دار البقاء لا في دار الفناء ، والذي يجوز بني العباد إنما هو تعزير أو حد أو قَوَدُ أو قِصاص أو حبس أو تغريب أو اغراق أو اسقاط عدالة أو إلزامُ اسم العداوة أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مضض الألم أجراً له ومُعِداً لأسبابه .

وربما قصر الايقاع على السخط وجاوز حد الغضب ، وربما كان مقصوراً على مقدارهما ومحبوساً على نهاية حالهما . وليس كل عقاب نتيجة سُخط ، وقد لا يسمى ذلك المُوقِع والمُعاقِب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسمى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمّى سُخطاً أو موجدة وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين وعلى أنه كان اخراجاً من دار الخلد والكرامة الى دار الابتلاء والمحنة . مع ما في ذلك من اعراء الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاغترار بيمين الخصم .

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا الى عاجل عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلك بظلم صديقك مع

استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنتَ انما تفعل ذلك لأنك تلذ ضَربَ السياط ورَضّ العظام ، فجنبُ دندن أحمل والسوط في ظهر قاسم أحسن وأبدانها تحت السياط أثبت وان أرواحها أبقى وهي بأرواح الكلاب أشبه والى طبائع الضِّباب أقرب وأرحامهم بالحمير أمسّ ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في ضربهم أعظم . فاستدم اللذة بطريق اللذة وضع الأمور في مواضعها يَطُل سرورك بها .

إن عِتاق الخيل وأحرار الطير أدقّ حساً وأشد اكتراثاً ، والكوادن الغلاظ والحامر الثقال أكلّ حِساً وأقلّ اكتراثاً .

وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلة الصياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط مَن لا يُقرّ على صاحبه ولا يدلّ على عَورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصياح والهرب والفرس العتيق يَعدُو ولا يصيح ، والحافر كله كظوم ضاغن والمخلب كله ضجور صيّاح ، والضجر في الخفّ عام والبخاتي (٤٨) أضجر ، فسمن الظِلف عام وهو في الضأن أخطى . وكل مضروب هارب صَيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود والمُقام عليه مذموم ، كالذي يعتري عين السقم ، وتجده في الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدّته . وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء

الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعـتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلانٍ إلاّ روح كلب. ويقول العرب : الضَّبُّ أطول شيء ذماء ، والكلب لئيم والضب غير كريم . والبازي أكرم من الصقر وأشدّ وأكثر ثمناً وأجمل جمالاً وأعفى صيداً وأنبل نبلاً ، ان قبَض عليه قتله وإن لم يُنح كَنْدَرته (٤٩) عن قربه أوهق نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعتقه أنه ينقطع بَرده للباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلّق بساقيه من رجل حمل بذرع فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندَرته وعلى مسقطه الذي يؤتى له .

فليس بدني مِن أبدان الاحتمال فأمتعك بطُول ثباته لك، ولا أثبتُ لك ثباتَ العير الكليل الحسّ ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتّع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذّتك وتمام شهوتك . فإن زعمتَ أنّ الذي يُثبت روح دَنْدَن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورُهما بما قد احتجنَا (٥٠) مِن كنوز الخلافة وأموال الرعيّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحها في أبدانها ومن شدّة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرّق بينها وبين تلك الأموال التي تمسك

أرواحَها بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تُمضي فيها حُكم الكتاب والسُنّة . فإنه سيحل عُقدة أرواحها عَقداً عَقداً ، فيعظم أجرك ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتتحبّب به الأمّة ، فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

تمت الرسالة بعون الله ومنّه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولا وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه.

www.alkottob.com

فلسفة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَصحبَ اللهُ مُدتك السعادة والسلامة وقرنها بالعافية والسرور ووصلها بالنعمة التي لا تزول والكرامة التي لا تحول.

هذا كتابٌ – أطال اللهُ بقاءك – نبيلٌ بارعٌ، فصلٍ فيه بين الحسد والعداوة، لم يسبقني إليه أحد، ولا الى كتاب

* الجاحظ رحمه الله – أول الرسالة في: الحمد لله رب العالمين كما هو أهله وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً.

www.alkottob.com

فضل الوعد الذي تقدّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدّم كتاب فضل الوعد . وإنّما نبُلت هذه الكتب وحسُنت وبرعت وبذّت غيرها ، لمشاكلتها شرف الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة ، مع ما تضمّنته من سير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جرت عليه أحوالهم . فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لمّا امتننت عليّ بصرف عنايتك الى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبحّرها والتقصّي لجميعها ، للأشغال التي تعروك ، فبحسبك أن تقف على حدودها وتتعرّف معانيَ أبوابها ، بتصفّح أوائلها . فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء والتوقد والحفظ ما يكفي معه نظرُ الخاطف.

إنّه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محقّقون ، قد قرأوا كتب من تقدّمهم ودارسوا أهلها ومارسوا ... لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فمخضوا الحكمة وعجموا (٥٠) عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمهات والأصول وعرّفوا الشرائع والفروع ، ففرقوا ما بين الأشباهِ والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامضَ الباطن

بالظاهر البيّن ، واستظهروا على الخفيّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع ، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفِطنة . فوضعوا الكتبَ في ضُروب العلوم وفنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف مِن بعدهم ، يزدلفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التي ركّبها الله فيهم وأبانهم من غيرهم وفضلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون فيما بينهم .

ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب منتحلة يدّعون مثل دعاويهم ، قد وَسَموا أنفسهم بسِمات الباطلَ وتسمّوا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ولبِسُوا لِباسَ الزور متزخرفين متشبّعين بما لا محصولَ له ، يحتذون أمثلة المحقّين في زيّهم وهديهم ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وألحاظهم وحركاتهم وإشاراتهم ، لينسبوا إليهم وينحلوا مَحلّهم . فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضُعفاء العامّة وجُهلاء الملوك ، واتخذهم المُعادون للعلماء المحقّين عُدّة يستظهرون بهم عند العامّة . وحَمَلَ المدّعيةَ للعلم المزوّر الحسدُ على بَهتِ العلماء المحقّين وعَضهِهم والطعن عليهم ، وجرأهم على ذلك ما رأوا مِن صَغو ضَعفة القلوب وأذلة الناس إليهم ومَيل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأمّلوا أن

www.alkottob.com

ينالوا بذلك بشاشة العامة، وتستوي لهم الرياسة على طغام
الناس ورعاعهم، ويستخولوا رعاعهم وقومهم. فهمزوا
وهددوا، وتوردوا على أهل العلم بغباوتهم وكشفوا أغطية
الجهل عن أنفسهم وهتكوا ستراً كان مسدلاً عليهم بالصمت.
فقد قيل الصمت زين العالم وستر الجاهل – طمعاً في الرياسة
وحبًا لها. وقد قيل:

حب الرياسة داء لا دواء له   وقل ما يجد الراضين بالقسم

ولم يخل زمن من الأزمنة من هذه الطبقة، ولا يخلو. وهلاك
من هلك من الأمم فيما سلف بحب الرياسة، وكذلك من
يهلك، إلى انقضاء الدهر، فبحب الرياسة:

هلاك الناس مذ كانوا   إلى أن تأتي الساعة
بحب الأمر والنهي   وحب السمع والطاعة

فأشكل على العامة أمر العالم الحقيقي والمدعي المجادل
والمنتحل للزور والباطل. ثم ترادف عليهم من هذه العلل
التي يعمى لها السبيل الواضح والطريق المنشأ على الجاهل
المستضعف وذي الغنا المسترهف.

ولست آمن – جعلني الله فداك – أن تكون هذه
الكتب التي أعنى بتأليفها وأتأنق في ترصيفها، يتولى عرضها
عليك من قد لبس لباس الزور في انتحال وضع مثلها،

وتسب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يقاربها إن
لم يكن أخاها فابن عمها، ويشبع بما لم يطعمه الله منها.
ولعل بعض من حوله أو بعض من يزل به ويرتع في عقله
ويلهو بلبه ويضعه على طبطابة اللعب وفي أرجوحة العبث
يوهمه الحسد له على ما يدعي من ذلك، ويتقدم إلى آخرين
في إيهامهم إياه ذلك، فيزيده فعلهم ضراوة بادعاء ما ليس
معه وهو منه عار، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد
قيل:

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله   ويغبط بما في البطن والبطن جائع

وقد قيل الذئب يغبط وهو جائع، فيلتوي في قراءتها
ويقبض لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصر في
تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها.

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقول أو
إشارة، فيوهم فساد معانيها ويومئ إلى سقوط ألفاظها،
من غير أن يظهر المعاداة لها والحسد لمؤلفها والحمل عليها
بقول يكون دليلاً على ما يضمر، وهو أبلغ ما يكون من
قلب المستمع وأنجعه فيه، فيقع ذلك بخلده. وقد قيل
من يسمع يخل. وليس يقابله أحد برد ولا يوازيه بنزاع

www.alkottob.com

فيزدادُ نشاطاً عند ما يَرَى من خلاء الأمر . وقد قيل : كلُّ مُجرٍ في الخــلاء يسبق وكل مناظرٍ متفردٍ بالنظر مسرور . وإنمــا يعرف جَريُ الخيل عند المسابقة وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لي بشرٌ المريسيّ : عُرض كتابي على المأمون في تحليل النبيذ ، وبحضرته محمدُ بنُ أبي العباس الطوسيّ . فانبرى محمدٌ للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب وأكثر وأطنب ، فغلقَ المأمونُ واحتدم وهاج واضطرم ، لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان يحبُ أن يَزَعه وازع بكفهُ بحجةٍ تسكته ، فلما لم يرَ أحداً يدبُ عن كتابي قال متمثلاً :

يالكِ من قنبرة بمعمرَ   خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقــري ما شئتِ أن تنقــري

فما كان إلا رَيث فراغه من التمثل بهذه الأبيــات حتى استوذنَ لي ، فدخلتُ عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمــن ما تقولُ في النبيذ ؟ فقلت : حِلٌ طلق يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعن اللهُ قليله إذا لم يُسكر كثيرُه . ثم قال : إن محمداً يخالفك . فأقبلتُ على ابن أبي العباس ، فقلت له : ما تقول فيما قال أميرُ المؤمنين ؟

قال : لا خلافَ بيني وبينك ، كلاماً يُوهم به أهلَ المجلس ، حباً للتسلم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمتُ ذلك منه ، وقلتُ له فمالي لا أرى أثرَ قواه في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيتُ ضحكه أطنبتُ في معاني تحليل النبيذ ، وابنُ أبي العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقا لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري ، مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعيبه - كان - قبلَ دخولي ، قال متمثلا :

ما لكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَوم   قد كنتَ نباحاً فمالك اليوم

ثم نظر إلي فقال : إن الكتب عقول قوم وراءها عندهم حججٌ لها ، فما ينبغي أن يُقضى على كتاب إلا إذا كان له مدافع عنه وخصم يبين عما فيه فإن أبناء النِعَم وأولاد الأسد محسودون . ثم قال : يا أبا عبد الرحمن بإزاء كل حاسد راهن ، وقد قيل في مَثل من الأمثال : الحسن محسود ، وفي مثل آخر : لن تعدمَ الحسناءُ ذاماً ، وقال الأحنفُ بنُ قيس :

ولن تُصادفَ مرعى مُمرعا أبداً   إلا وجدتَ به آثارماكولِ

*يقال يعاب في كل حسن ويؤكل منه فيعيبُه ذلك . وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه : ما أحدث الله لعبدٍ نعمةً

www.alkottob.com

إلا وجدتَ له عليها حاسداً ، ولو أن امرءاً كان أقومَ من القِدح لوجدتَ له غامزاً . وقال عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه : الحاسدُ لا يملكُ عِنانَ حَسده ، لأنه مغلوبٌ على نفسه . وقال الخطابُ بن نُمير السعدي : الحاسدُ مجنون يحسد الحسن والقبيح . وقال المهلبُ بنُ أبي صُفرة : الحسدُ شهابٌ ، لا يُبالي مَن أصاب وعلى من وقع .

والعداوةُ لها عقلٌ تسوسُ به نفسها ، فينجمُ قرنها وتُبدي صَفحتها ، في أوقات الهتر ، وإلا فإنها كامنة تنتظر أزمنة الفرص ، والحسدُ مسلوبُ المعقول بإزاء الضمير في كلّ حينٍ وزمانٍ ووقت . ومن لؤمِ الحسد أنه موكل بالأدنى فالأدنى والأخص فالأخص ، والعداوةُ وإن كانت تقبح الحسن فهي دون الحسد ، لأن العدو المباينَ قد يحول ولياً منافقاً ، كما يحول الوليُّ المنافق عدواً مبايناً ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوةُ تحدُثُ لعلةٍ فإذا زالت العلةُ زالت معها ، والحسد تركيب لعله (٥٢) يحسد عليه ، فهو لا يزول إلا بزواله .

ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أرضي الناس كلهم إلا حاسدَ نعمةٍ ، فإنه لا يُرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها تزحزحوا عن

عداوتها وكانوا من أهلها الحامين عنها والدافعين عن حماها .

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمةُ التي يُعاش فيها نعمة محروسة ، ليس عليها ثائرٌ يفتنها ولا ذو حَسد يحتال في غيرها .

وقال قُتيبة بن مُسلم : خيرُ الخير وأحصنُه خير عيش فيه . وكل خير كان يوضح بدلاً ؛ كان من المتالف ممنوعاً ومن الغيرِ آمناً .

وحُساد النعمة إن أعطوا منها وتبجبجوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوةُ خَلَقٌ وتمل والحسد غضٌ جديد حرام إذا عطى (٥٣) لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌ وليس كل عدوٍ بحاسد . وإنما حملَ اليهودَ على الكفر بمحمد ﷺ — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنه نبي صادق ورسول محق يقرّون بعثه في توراتهم ويتدارسونه في بيتِ مدراسهم — الحسدُ ، وحجزَ بينَ علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أن الحسد آلمُ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه مُغرى بفعل الله عز وجل ، والعداوةُ عارية من ذلك لا تتصلُ إذا اتصلت إلا بأفعال العباد ، ولا يُعادى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ

www.alkottob.com

عادى أحداً لأنه حسنُ الصورة جميلُ المحاسن فصيحُ اللسان حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ تعرفهم بالخبر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أن الحسد لا يكونُ إلا عن فساد الطبع واعوجاج التركيب واضطراب السوس .

والحسد أخو الكذب يجريان في مضمارٍ واحد ، فهما أليفان لا يفترقان وضجيعانِ لا يتباينان . والعداوةُ قد تخلو من الكذبِ ، ألا ترى أن أولياءَ الله قد عادَوا أعداءَ الله ، إذ لم يستحلوا أن يكذِبوا عليهم . والحسدُ لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عَموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي به البناءُ يعقَد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قُلن لوجهها ... كذِباً وزُوراً إنه لدَميم

والحسدُ نارٌ وقوده الروح لايبوخ أبداً ، ويفني الوقود والحسدُ لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يوقدُه الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة . والحسدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب . وقال بعضهم الحسدُ أنثى لأنه ذليل والعداوةُ ذكرٌ فحلٌ لأنها عزيزة والحسدُ وإنْ كان موكلا بالأدنى فالأدنى ، فإنّه لم يعر منه الأبعد فالأبعد .

فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكنُ العِراق وينتحلُ العلم والأدب انتهى إليه خبر مشاركٍ له في الصناعة ، من أهل خراسان وحمه (٥٤) بلخ ، من اتساق الرياسة له في بلده وجميل حالِه ونُبل محله عند أهل مصره وطاعة العامّة له وترادف النّاسِ عليه ، فطار قلبُه فَرقاً وأخذته الأرباء وتنفس الصعداء وانتفض انتقاض المعلّس المطور (٥٥) ، فقال لِي رجل من إخواني كان عن يميني حين رأى ما رأى منه : بحقٍ قال مَن قال : لم يُر ظالمٌ أشبه بمظلومٍ من حاسدِ نعمة ، فإن نَفَسه متصلٌ وكربَه دائم وفكرَته لا تنام .

وهو في أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشدُّ لصوقاً منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكأنّ مَن ناله التقصيرُ في صناعة العلم عن غايته القصوى ، قد استشعرَ حسَدَ كل ما يردُ عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع معنىً ، بل قد وقَع بخلَده لضعفه وقرَّ في رُوعه لخساسته ، أنه لا ينالُ أحدٌ منهم رياسة في صناعة ولا يتهيأ له سياسةُ أهلها ، إلا بالطعن على نواصيهم والعيب لجلتهم والتحيف لحقوقهم .

قال لي مسلمُ بنُ الوليد الأنصاري الشاعِر الذي يُعرف بصريع الغواني : خُيل إلى نوكى (٥٦) الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر ، إلا بهجائي والطعنِ في شعري

ولسان يهجى به عرضي ، لا أنفكُّ متهماً من غير جُرم ، إلا ما سَبَق إلى قلوبهم من وَساوس الظنُون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بجودة الشعر ، إلا إذا استعملوا في ما خُيِّل إليهم .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند الفضل ابن سهل ذي الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتابا ألفه النضرُ بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه . وكان الفضل عارفاً بالنَضر الشُميلي واثقاً بعلمه مائلاً إليه . فأقبل على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بنَ خالد قال يوماً : إن كتبي لتُعرض على من يغلُظ فهمُه عن معرفتها ويحسر ذهنه عنها ولا يبلغ أقصى علمه أمانيها – يعرِّض باسماعيل بن صبيح – فيطعن فيها ولا يدري ما يُقرأ عليه منها ، إلا أن نار الحسد تلهبه ، فيهذي هذيان المريض ويهمز همزان المعزى ثم لا يَرضى أن يقف عند أول الطعن ويُمسك عنه حتى ، يستقصيَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعنَ على ما لم يبلغ درايتَه ولم يحط به علمُه ، ثم يُنسيه جهلهُ الطعنَ الذي تقدّم فيها ، ويحمله نَوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شَهِدوه في أوان طعنه عليها وحين ثلبه لها .

فقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بنُ خالدٍ بالتجربة والابتلاء ، وإني ربما ألفتُ الكتابَ المحكمَ المتقنَ ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخُطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحِكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعتَه ونصاعتَه . وكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلفاً لملكٍ معه المقدرةُ على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . فإن أمكنتهم حيلةٌ في إسقاطِ ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصدُوه وأرادوه . فإن كان السيدُ المؤلف فيه الكتابُ نحريراً نقاباً ونقريساً (٥٢) بليغاً وحاذقاً فطِناً ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى مَلِكٍ آخر ، ومتّوا إليه به . وهم قد ذمّوه وثلبوه ، لما رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي .

وربما ألفت الكتابَ الذي هو دونَه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدمني عصرُه ، مثل ابن المقفع والخليل وسَلم صاحبِ بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومَن أشبه هؤلاء ، من مؤلفي الكتب . فيأتيني

www.alkottob.com

أولئك القومُ بأعيانِهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكمَ من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته عليّ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به، ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم، ويَرْوُونه عنّي لغيرهم من طلاب ذلك الجنس. فيثبت لهم به رياسة، يأتمّ بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي.

ولربما خرج الكتابُ من تحت يدي مُحصَفاً كأنه متنُ حجرٍ أملس، بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظٍ شريفة فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسي، وأحسُد عليه مَن أهتمّ بنسبته إليه، لجودة نظامه وحسن كلامه، فأظهره مُبهماً غُفلا، في أعراض أصولِ الكتب التي لا يعرف وُضّاعها فينهالون عليه انهيال الرمل ويستبقون إلى قراءته استباق الخيلِ يوم الحَلْبَة إلى غايتها.

وحسد الجاهل أهونُ شوكةً وأذلُّ مِحناً، من حسد العارف الفطِن. لأنّ الحاسدَ الجاهل يبتدرُ إلى الطعن على الكتاب في أوّل وهلةٍ يُقرأ عليه، من قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة. ثمّ لا يرضى بأيسر الطعن وأخفّه حتى يبلغ منه إلى أشدّه وأغلظه، من قبل أن يقفَ على فصوله وحروفه.

وليس يثلبه مفسّراً مفصّلا؛ ولكنه يُجمل ذلك ويقول: هذا خطأ من أوّله إلى آخره وباطلٌ من ابتدائه إلى انقضائه. ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطعناً وإطناباً في الحمل على وضع الكتاب؛ كان ذلك أقربَ إلى القبول منه. وهو لا يعلم أنّ المستمعَ إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخفّ به وبكّته بالجهل، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء وقضاء؛ بغير رَوِيّة؛ فسقط عنه فبطل. والحاسد العارف الذي فيه تقيّة ومعه مُسكة وبه طعم أو حياد، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في استعماله، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله وردّد فيه بصرَه وراجع فكرَه وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته وجلسائه من التثبّت والتأنّي، حبالةً يقتنص بها قلوبهم وسبباً يستدعي به ألبابهم وسُلّما يرتقي به إلى مُراده منهم وبساطاً يفرشُ عليه مصارع الخُدَع، فيُوهِم به القصدَ إلى الحقّ والاجتباء له. فربّما استدعى بهذه المخاتل والخُدع قلبَ السيّد الحازم.

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفي الكتب، إذا كان العارضُ لها على السيّد الذي منه تُرجى أثمانها وعنده تنفُق بضائع أهلها، على هذه الصفة التي وصفتُها، من الحسد والحذق بأسبابه والمعرفةِ بالوجوهِ التي تثلم المحسود وتهدّه.

www.alkottob.com

وتضعُ منه ومِن كتبه ، لا سيما إن كان مَعَ استبطان الحسَد استعمالِ الدهاء والذكاء ، جليساً لازمـاً وتابعاً لا يفارق ومُحدِّثاً لا يَريم ، وليست له رِعَة تحجزه عن الباطل ولا مَعه حذر يبعثُه على الفِكر في العواقب . فإنّ هذا ربّمـا وافق فَـترة السيّد ، بطول تَرداد الكلام وكثرةِ تكراره عليه ، من تأكيد خِطابه ونصرته قوله وذِيادِه عنـه واحتجاجه له فيؤثر في قلبـه ويضجّع رأيه . فليس للسيّد الذي يحبّ أن تصيرَ إليه الأمور على حقائقها وتصوّر له الأشياء على هيآتها ، حيلة في ذلك إلاّ حسم مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم والاحتجاز دونَهم .

وربما بلغ من الحاسد جَهدُ الحسد ، إذا لم يُعمَل بشهوته ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يُقِرّ على نفسِه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء مـا أراد ، وكان مشغول الفكر مقسّم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همّه ، راجع وكان بدر منه عن وهم وخطأ ، لتظن به الرعَة ، ويقالَ إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ ، إلا من عقلٍ وازع ودين خالص . وإنما ذلك حيلة مِنه ودهاء قدّمه أمام ما يريد أن يؤكـد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما يَرِد عليه من الكتب

ن غير موافقة على مواضع . ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع
ن قوله عند التبين له خلاف ما قال ، أوثقَ أسباب عـدالته
أحكم عُرى نصَفته .

وكان يقال : من لطيف ما يُستدعى به الصدق إظهـار
ك في الخبر الذي يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء
ن تُرى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريـد الطعن
ليه ، أن تطعنَ ثم تستغفرَ الله ، ثم تمهَّل فترة ، ثم تعود لطعن
أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقـال :
ن هذا لو كان عن حسدٍ ما رجع عن الطعن الأوّل . وقـد
ل : ذو الغِيبة المشهورُ بها المنسوبُ إليها ، يقـل ضرره
ضعف كيده ، لما ساغ له في الناس وانتشر منه . فكان
ندهم ظنيناً متهماً ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضـاء
ام المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا اصطفاء له . وإنما
لية في غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا
كلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ،
دعون إليه بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائـل
تاب ، ودعوا للمقول فيه ، وأوكدوا قول القائل ، لأنه لو
لّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له ، لجُبه القائـل ورُدع عن
له .

www.alkottob.com

ومُظهر التوقّي قليلهُ عند العامة كثير ، والمتورّد المتقحم لا تكاد العامة تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحذاقهم حيث يقول :

مسّا تراب الأرض منه خلقتما
وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما
فما حُشي الإنسان شراً من الكبر
فلو شئت أدلي فيكما غير واحد
علانيةً أو قال ذلك في سرّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما
ضحكت له حتى يلج فيستشري

ومن هذا سرق العتّابي المعنى حيث يقول :

إن كنتَ لا تحذرُ شتمي لما ... تعرف من صفحي عن الجاهل
فاخشَ سكوتي سامعاً ضاحكاً ... فيك لمشنوع من القائل
مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منحدَر السائل
ومَن دعا الناس إلى ذمّه ... ذموه بالحق وبالباطل

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ بالتبسّم من الثوري ما لا يبلغ الثوري بالتصريح منه .

وسُئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى، فقلب كفه وقال :

من الناس مَن يخفي أبوه وجدُّه
وجدُّ أبي ليلى كالبدرِ ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجة في ذم له لا مدح ، وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعو وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً أظهره الوطب وما خضوه

فإن قَدحَ – جعلني الله فداك – بالحسد قادحٌ ، فيما أؤلّفه من كتابي لك وسبق إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتني النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله بجوابي ، فإني أرجو ألاّ يُحتاج إلى حاكم عند تجاثي القولين بين يديك ، لعلوّ الحق على الباطل ودموغه إيّاه .

والحسد أذلّ نفساً من أن يُجاثي أحداً ، والعداوة إنما قُدّمت عليه لأنها عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلا في العين وعلى اللسان المقصور عند المؤتلفين على (٥٨) ....، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ، عند الموافقين له والمخالفين عليه .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤٌ سيط بالحسد وجُبل عليه ، فليس له أخٌ في السرّ ولا

www.alkottob.com

عدوٌّ في العلانية .

وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حُسّاد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القُلّ .

ومما يدلك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمّته وعابته . ولا نعلم أن شاذاً من الشواذّ وشارداً من الشُرّاد ، فضلاً عن جيلٍ من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عادِ مَن عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها .

ثم عظُم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سُبُلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، من يأتيك به سَحباً وجرّاً . فقال بشر : إني مستعمل في عدوّي قول القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُهى
تَنَلْ ظَفراً مِمّن تريد وتغلب

فكان هذا ممن يرى المعاداة بالحزم ويغتالها بالعقل والتأني .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتر بالمداراة وأشفاها للأنفس ما قُرِع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أتّقي الضغائن بالرُقى

فعلَ الذليلِ ولو بقيتُ وحيدا

لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلَها
حتى أداريَ بالحقود حُقودا

كالخمر خيرُ دوائها منها بها
تشفي السقيم وتبرىء المنجودا

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : لله درّ عروةَ هذه أنفسُ العَرَب . فهؤلاء رأوا كشف المعاداة ولم يروا التأنّي .

ومنهم مَن رأى المعاداة بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلاّ المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرّ قد أقبل إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلا أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلقى . وأنشد :

إذا عاداك مُحتَنِكٌ لبيب
فعادِ النومَ واحترس البياتا

ولا تثر الربوص (٥٩) وخلّ عنها
وإن ثارت فكن شبحاً مواتا

تحول إلى سواك ونح عنها
فخير الشرّ أسرعه فواتا

وإن مالت عليك وخفت منها
فواجهها مجاهرةً صِلاتا

ومنهم مَن أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : إن الملامات والمذمّات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمّة ما كانتا في ترك نصفةٍ أو شدّة

منافسة في تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

منافسة العدوّ أو الصديق ... تجرّ إلى المذمّة والملامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ ... وبعض النصف فانتهز السلامه

ومنهم من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه وناقسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ... ولو أنصفوا حتى تعق وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثني إبراهيم بن شعبة المخزومي ، قال : سمعت مَن حكى لي عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوّك فبادره برجلك، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك. وأنشد :

إذا برك الزمان على عدوّ ... بنكبته أعنتُ له الزمانا

قال العتابي : قلت لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حملت الأيّام على عدوّك ثقلا وأمكنتك منه ، فزِدْهُ ثِقلا إلى ثِقله . قال . فقال لي طوق : من لم ينتهز من عدوّه انتهز منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درّك ما ظننتَ بثائرٍ ... حرّانَ ليس على التراب براقد
أحقدتَه ثم اضطجعت ولم ينم ... أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد

إن تمكنِ الأيامُ منك وعلّها ... يوماً توفك بالصُواع الزائد
ولئن سلمتَ لأتركنك عارضاً ... بعدي لكلّ مسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ونصرتَه عند وثوب الدهر عليه . قال : حدثني ابنُ عبد الحميد ، قال ابن شبرمة : كانت الحرب يومَ صفّين بين العرب محضةً لا شَوْبَ فيها ، فكانت محاربتُهم كرّاً واعتناقاً ، وكانوا إذا مرّوا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومه فانصروه وألقاه دهره بضيعه فردّوه الى أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أن المصيباتِ تنزع السجيات . قال : وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

فلو بي بدأتم قبلَ من قد دعوتم ... لفرّجتُها وحدي ولو بلغت جهدي
إذا المرءُ ذو القربى وذو الجند أجحفت ... به سنةٌ سلّت مصيبته جعدي

ومنهم مَن رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج فيه الى استقصاء شواهده .

قال غيلان بن خرشنة الضبي ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس : لا يزالُ العربُ بخير ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف وركبت الخيل ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما

حميَّةُ الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلمَ ذلاً والتواهب ضيما .

وقال الشعبي لرجل قال له :ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك ونصب لك . فقال :

ليست الأحلامُ في حال الرضا　　إنما الأحلام في حال الغضب

وأنشدني بعض العلماء بيتين ، وقــال : إن الزهري كان كثيراً ما يتمثل بهما :

وإني لأعدائي على المقت والقلى　　بني العم منهم كاشح وحسود

أذبُّ وأرمي بالحصا من ورائهم　　وأبدأ بالحسنى لهم وأعود

وكان عبدالله بن مَرْوان إذا أنشد :

إني وإن كان ابنُ عمي كاشحاً　　لمراجمٌ من دونـه وورائه

ومُعيرُه نصري وإن كان امرءا　　متزحزحاً في أرضـه وسمائه

وإن اكتسى ثوباً نسيساً لم أقل　　يا ليت أنّ عليّ حسنَ ردائه

وإذا تخرّق في غناه وفرته　　وإذا تصعلك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان والمسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمر بالسفه في العداوة ، واستعمال الخرق فيها .

حدثني نوح ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ،

قال : أنشدني منه ، فانشده :

وإنّا لقوم ما نعوّد خيلنا　　أذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا

وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا　　من الطمن حتى يحسب الجون أشقرا

وليس بمعروفٍ لنا أن نردها　　صِحاحا ولا مستنكراً أن تُعقرا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا　　وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنــة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له　　حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له　　بوادر تحمي صفوه أن يُكدّرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فــاك . فأتت عليه عشرون ومائــة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانهــا ، لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا أحسن ما روي في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهليّ :

صفحنا عـن بني ذهـل　　وقلنـا القوم إخوان

عسى الأيـام أن يرجعـ　　ـن حيـاً كالذي كانوا

فلمـا صـرح الشرُّ　　وأمسى وهـو غرثان

مشينا مشيـة الليث　　بـدا والليث غضبان

بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان
وطعنٍ كفم الزقّ وها والزق ملآن
وفي الشرّ نجاة حين لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر، عن أبيه، عن خالد بن عمرو الكلبي، قال: كنا مع أبي برزة الأسلمي في غزاة، فكان منّا رجل يمتار لنا الميرة ويقوم بحوائجنا، فإذا أقبل قلنا: جزاك الله خيراً، فغضب لدعائنا، فشكونا ذلك الى أبي برزة، فقال أبو برزة: كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، فاقلبوا له. فكنا نقول له اذا أتانا بالحوائج: جزاك الله شراً وعسراً، فيضحك لذلك.

وأنشدني رجل عن بعض الأعراب:

أرى الحلم في بعض المواطن ذلّة ... وفي بعضها عزاً يشرّف فاعله
اذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلاً ... سفيهاً ولم تقرن به من يجاهله
لبستَ له ثوب المذلة صاغراً ... فأصبح قد أودى بحقك باطله
فابق على جهال قومك انه ... لكل حكيم موطن هو جاهله

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: استوصوا بالغوغاء خيراً، فإنهم يطفئون الحريق ويسدّون البثوق.

وقال أبو سلمى في الجاهلية:

لا بد للسؤدد من رماح ... ومن هداء يُتقى بالراح
ومن كلابٍ جمة النباح

وقال مسلم بن الوليد:

حلفت لئن لم تكفني سفهاءها ... خزاعة والحيّان عوف وأسلم
لأرتجعن الودّ بيني وبينها ... بقافية تقري العروق فتحسم
من اللاء لا يرجعن الا شوارداً ... لهنّ بأفواه الرجال تهمهم
أصابوا حلماً فاستعدوا بجاهل ... اذا الحلم لم ينفعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب، ولو استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي، الى بلوغ الغاية في تمام الكتاب. وانما ذكرنا من كل باب عرضَ ما دل على معناه الذي اليه قصد.

ولم نر الحسد أمرَ به أحد من العرب والعجم في حالٍ من الأحوال، ولا ندب اليه ونبّه عليه. وقد نُبّه على العداوة، وفُصل بين أحوالها بما قد بيّناه، فظهر فضلها على الحسد بذلك.

وكنتُ امرءاً قليل الحُسّاد، حتى اعتصمت بعروتك واستمسكت بحبلك واستذرأت في ظلك، فتراكم عليّ

الحُساد وازدحموا ، ورموني بسهامهم من كل أوْبٍ وأفقٍ ،
وتتابعوا عليّ تتابُع الدَّبر على مشتار العسل . ولئن كثروا
لقد كثر بهبوب ريحك اخواني ، وبنَضرة أيامك وزهرة دولتك
خُلاني . وأنا كما قلت :

فأكثرتَ حُسادي وأكثرتَ خُلتي
وكنتُ وحُسادي قليلٌ وخُلاني

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هـذا الكتاب ، دخل
عليّ عشرة نفرٍ من الكتّاب ، قـد شملهم معروفك ورفع
مراتبَهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب
مـا أوليتهم من احسانك وجزيل فوائدك . فأفاضوا في
حديث من أحاديث الحسد ، فشعَّب لهم ذلك الحديث شعوبا
افتنّوا فيها ، والحديث ذو شجون . فمـا برحوا حتى أتتني
رُقعـة أناسيّة من الحُسّاد ، فيها سهام الوعيد ومقدّمات
التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أؤلّف من الكتب،
ان أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجري عليّ . فدفعت رقعتهم الى
مَن قرب اليّ منهم ، فقرأها ثم قال: قاتلهم الله أبظلمٍ يرومون
النيْل ويلتمسون الشركة في المعروف . لنَزْعُ بالكلاليب أهون
من بذل معروفٍ بترهيبٍ . وأنشأ يقول :

أمـا الحوادث من خليـ ... لك مثـل جندلة المراجم
قـد رامني الأعداء قبـ ... لك فامتنعت مـن المظالم

ودفعها الى مَن قرب منه فقرأها ، وقـال الثاني : صكة
جلمود لكل مُرعِد حسود يستمطر العُرف بالتهديد ، مَخِيلٌ
الوعيد يذهب في البيد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعـد يا يزيـ ... د فما وعيدك لي بضائر

ودفعها الى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلماً وخوّفوا
هضماً ، لقوا حرباً ولقيت سلماً . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع

ودفعها الى الرابـع فقرأها وقال : قـول الذليل وبوله
سِيّانِ . وأنشأ يقول :

ما ضرّ تغلب وائل أهجوتها ... أم بُلت حيث تناطح البحران

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار،
جُبّار جُبار . وأنشأ يقول :

مـا أبالي أنبّ بالحزن تيس ... أم لحـاني بظهر غيب لئيم

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : إذا علقتك الأمجـاد
فليهِن عليك الحُسّاد . وأنشأ يقول :

إذا أهل الكرامة أكرموني ... فـلا أخشى الهوان من اللئام

www.alkottob.com

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة مَن هو في ذي المنعة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغني نباحكم
ما يملك الكلبُ غيرَ النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : نَوكى هَلكى ، لم يعرفوا خبرك ولا دروا أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب
بحالك عند سيّدنا لذلّوا

وعندي صديق لي من السوقة له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مُسِراً : إنّ هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُسّاد ، وضربوا الأمثال في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعة من عزّ أبي الحسن – أطال الله بقاءه – ومعقل لا يُسامَى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

توَقّ قوماً من الحُسّاد قد قصدوا
لحطّ قدرك في سِرٍّ وفي عَلَن

فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسّاد :

إنّ ابن يحيى عبيد الله أمّنني
من الحوادث بعد الخوف من زمني

فلست أحذرُ حُسّادي وإن كثروا
ما دُمتَ مُمسكَ حبل من أبي الحسن

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكُتّاب ، باستهانتي بالحسّاد عند اعتلاقي حبائلك – أعزك الله – أنشأ متمثلاً يقول بشعر نصر بن سيّار :

إنّي نشأت وحُسّادي ذوو عددٍ
يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم
فمثل حسن بلائي جرّ لي الحسدا

وليس العجب أن يكثروا وأنا أنعق بمحاسنك وأهتف بشكرك ، ولكن العجب كيف لا تتفتت أكبادهم كمداً . وكان بعضهم يقول : اللهم كثّر حُسّاد ولدي ، فإنهم لا يكثرون إلّا بكثرة النعمة . فإن كان والدي سبق منه هذا الدعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل وُلدي محسودين ولا تجعلهم مرحومين ، فإنّ يوم المحسود يوم عزّه ويوم الحاسد يوم ذلّه .

www.alkottob.com

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهي تقول :

اليوم يرحمنا مَن كان يحسدنا
واليوم نتبع مَن كانوا لنا تبعا

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنة النعمان : أخبريني بحالكم ، قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسرت ، فقال لها : أجملي ، فقالت : بتنا نُحسَد وأصبحنا نُرحم . فخطبها زياد – وكانت في دير لها – فكشفت عن رأسا ، فإذا رأس محلوق ، فقالت : أرأس عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنًى ، ولا جزتك يد استغنت بعد فقر .

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلاّ في اثنين ، رجل أتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البر آناء الليل وآناء النهار . فهذا الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

احسُد على نيل المكارم والعُلا
إذ لم تكن في حالة المحسود
حسد الفتى في المكرمات لغيره
كرم ولكن ليس بالمعدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفاً وفضلاً وعلماً ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذي يُهدي إليك الكتب ، ويتُحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب إنه قريب مجيب (*) .

* تم الكتاب ولله المنة وبيده الحول والقوة .

www.alkottob.com

شرح الكلمات العويصة التي اشتمل عليها هذا الكتاب

١ – الحكمة :

تمتد معاني هذه الكلمة حتى تشتمل كثيراً ولكن الاصطلاح جزرها وكف يدها وكاد يقصرها على الطب ، والجاحظ هنا لا يعني بها الا العبرة والموعظة والزجر والكف عما لا يعني .

يقال : حكّمه: أوقفه عند حده كأن الحكمة عقال للجمل أو لجام للفرس وكأن العرب في جاهليتهم كادوا يحصرونها بهذا المعنى اذ نسمع شاعراً يتوعد بني حنيفة (إحدى قبائل نجد رهط مسيلمة) بقوله :

أبني حنيفة حكّموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا

www.alkottob.com

ابني حنيفة انني إن أهجكم
ادع اليمامة لا تواري أرنبا

أي حولوا بين سفهاءكم وبين التعرض لعشيرتنا خشية ان يحرجوني فأفصم لحومكم هجواً وذماً ويدفعوني إلى هاوية غضب قد تدمر ارباضكم وتجعل اليمامة – احدى محافظات نجد – قاعاً صفصفاً لا يستطيع الأرنب ان يجد بها ملجأ أي لا يبقى بها حجر على حجر !

ثم اتسعت كلمة حكمة بعد الاسلام فأطلقت على الوحي، كما أصبحت ترادف كلمة (فلسفة) !

٢ – المخلق للأعراض، لداة، جدة :

المخلق للأعراض، الذي يجعل الأعراض خلقاً أي بالياً، والأعراض هي موضع القدح والذم من الرجل، يقصد ان تسلط اللهو على الشخص يجعل عرضه – أي كرامته – بالياً أي قديماً مهترءاً يعني ان الانسان إذا أطاع سلطان الهوى ومال مع النفس الأمارة، تناقص قدره وأوغل الناس في تناول لحمه بفم القدح والطعن والتحيف (الظلم) أي التنقيص الذي قد يبالغ به الطاعنون فينقلب جوراً وظلماً واجحافاً ويعني بذلك كله ان الناس يطعنون كرامة من يحني عنقه لسلطان الهوى ويذهب

وقته في ما لا يجدي وتصبح اللداة : الخصومة متغلبة على تصرفاته وينفق (الجدة) : المال في ما لا يعود عليه ولا على امرته وقومه بفائدة .

والجاحظ يقصد انه عرف ابن أبي دؤاد في شرخ الشباب وشاهد منه مكارم الأخلاق في الوقت الذي كان به سلطان الهوى واللهو يعيث بأخلاق أمثاله من الشباب المستسلمين للأهواء وكان سكر الشباب والجدة اللذين ينقصان المال والمروءة مستولين على تصرفاتهم يحيلان علاقاتهم مع المجتمع خصومة .

كأن الجاحظ أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

بل يغلب على ظني ان الشاعر أخذ هذا المعنى من أبي عثمان.

٣ – ويل الله عقلك :

ألا ما أجمل وألذ وأسمى وأنعم هذا المعنى الذي أرى حق طبعه محفوظاً للجاحظ !

www.alkottob.com

نعم ، العقل وكيل الله في الإنسان إذ هو موجود غـير محصور بجهة – كما ان الله تعالى عن الحصر والحيّز – هذا العقل العجيب الذي جعله الله في الحيوان غريزياً محدوداً أو محسوساً (كعقال الجمل – اعقلها وتوكل) وفي الانسان معنوياً يعقله عن التجاوز أي يحول بينه وبين التجاوز كما يحول عقال الجمل بينه وبين انتقاص شجر المجاورين مثلاً .

هذا الانسان – المخلوق العجيب – الذي انفرد دون سائر المخلوقات بالتخيير في تصرفاته ، قد يـدرك مهمة وكيل الله فيه ، فيقف عند حدوده ويصدع بتوجيهه وقد يضع حبله على غاربه غير آبه لرقابة الله ولوكيله ضارباً بهما عرض الحائط مع قدرته على كبح جماح نفسه وكفكفة تصرفه .

وهكذا نرى – وكيل الله في الانسان – حارساً أعزل لا يقف دون التصرفات المشبوهة وان استطاع ان يجعل مما دعوناه خيراً ووجداناً ومروءة ، عقارب لداغة وثعابين نهاشة ، قد لا يشعر بها من تبلد احساسه وقال بلسان حاله :

أنا الغريق وما خوفي من البلل !

٤ – الغبطة نوع من الحسد غير المذموم اذ الغابط من تمنى

مثل نعمة أخيه مع تمني دوام النعمة على أخيه ، فكان الغبطة نوع من التسابق وضرب من التنافس في المكارم !..

٥ – الرائد في الأصل هو الذي يرسله قومه أمام ظعنهم (قافلة سفرهم) ليرتاد المواقع الغنية بالمـاء والكلأ والعشب والحشيش) كيلا ينزلوا أرضاً موتاً مجدبة أو أشد جدبـاً وجفافاً من الأرض التي فارقوها فتتضاعف كارثتهم وفي الكلمات النبوية (الرائد لا يكذب أهله) إذ لو كذبهم لدفعهم – ودفع نفسه – شطر كارثة محققة .

وقد تطلق كلمة (رائد) اصطلاحاً على مقدّم القوم وقائدهم وموجههم وطليعتهم وعمود جهدهم الاجتماعي أو القومي أو الروحي .

٦ – النائبة : المصيبة ، الكارثة ، النازلة وجمعها نوائب ونائبات .

٧ – عجمت مذاهبك أي بلوت أمرك واختبرت حالك ، يقال: عجم عوده أي عضه ليعلم صلابته يعني انه جرّبه وعرف دخائله وما تنطوي عليه نفسه ومـا يدور بخلده ويتلجلج في حنايا نفسه وما يخفي صدره . —

٨ – حذفنا من هنـا كلمة (اليك) ليستقيم المعنى حيث

www.alkottob.com

كان بهذا النص (فألفت لك كتابي هذا اليك) ولا يخفى ان هذا من تعدد النسخ واخطاء النسّاخ كما ذكرنا هذا في مطلع هذا الكتاب .

٩ – جُنة : وقاية وستراً وفي القرآن الكريم (اتخذوا أيمانهم جُنّة) .

١٠ – الأماني ، طلب شئ لم نقدم أسبابه ونعد عدته ، أما الأمل فطلب شيء مهّدنا لحصوله ، فزرع القمح في الموسم وانتظار السنابل أمل وتفريط المزارع وقصوره في الزرع مع انتظار الموسم اماني .

١١ – الاستطراف ، طلب الطرف وهو الحديث الجديد المستحسن .

١٢ – تنوق في مطعمه أو ملبسه ... تأنّق وتجوّد وطلب الاحاسن وتعمّد الاتقان .

١٣ – تبارّ القوم (بتشديد الراء) أبر بعضهم بعضاً مثل تعاطفوا وتهادوا وتواصوا ...

١٤ – الخانة ، جمع خائن، تجمع على خائن وخانة وخونة.

١٥ – لاحا فلانٌ فلانا ، نازعه ، مانعه ، لاومه ، تلاحا

القوم ، تنازعوا تلاوموا ... وفي مثل (من لاحاك فقد عاداك) .

١٦ – زكنتُ : فطنت ، تفرست ، فهمت ، زكنت منه اي علمت منه عداوة واستنشقت محاولة الغدر ، والمعنى الاجمالي للبيت : علمت من اسرار أخصامي مثل الذي علموا من أسراري وفطنت وتفرست وفهمت من اسرارهم مثل الذي علموا من أسراري وبذلك أصبحت حذراً غير هيّاب ولا وجل من مفاجآتهم ولذا لن يستطيعوا اخذي على حين غفلة وان كنت اداجيهم (أظهر لهم الصداقة في لساني) .

١٧ – توقل : صعد ، يبد انك توقدت (صعدت) سلّم الفضائل فشارفت (كدت تبلغ) أعلاه فأصبحت منقطع القرين.

١٨ – وأقمَن : واجدر وفي الكلمات النبوية (من باع داراً او عقاراً ولم يضع ثمنه في مثله فهو مال قمن) اي محاط بالتفريط والضياع وجدير بعدم البقاء .

١٩ أسومك : اكلفك . النخالة : الصلابة . والزماتة : الوقار ، يريدانه صلب العود ثابت لا يتزعزع جليل وقور .

٢٠ – يزينه : يكفه ، يريدان العاقل يمسك لسانه ويشده بخطام (زمام) ويشكله اي يعرقل سيره وينهنه حركته في ما لا ينبغي به الحركة .

www.alkottob.com

٢١ – لسع الدُبر أي الزنابير او النحل ، والإشفا : المخرز او المثقب وجمعه أشافي .

٢٢ – الدن : وعاء كبير من خزف يوضع به الزيت او الخمر يقول الحريري بوصف البصرة .

فصل ان شئت فيها من يصلي
وإما شئت فادن من الدنان

٢٣ – ختر الأمانة : خانها يريد هنا أنه أفشى السرّ وأذاعه .

٢٤ – الطامور والطومار : الصحيفة والجمع طوامير .

٢٥ – هـذا النص ليس في سفر سليمان او سواه من اسفار العهد القديم ويظهر ان الجاحظ سمعه او رآه في كتاب ما فنقله قائلا (والعهدة على الراوي) .

٢٦ – القتيت : الكذب والنميمة .

٢٧ – العَنَتَنَه : المشقة وتكليف ما لا يكاد يطاق .

٢٨ – قلاه : بغضه ، وفي القرآن الكريم (ما ودعك ربك وما قلى) أي ما تركك وما بغضك .

٢٩ – الأشنع الأبلق : كناية عما ليس واقعيا من الأخبار

أو ما لا يمكن الحصول عليه .

٣٠ – النبوة : الخطيئة ، والصريحة القطيعة ، (لكل صارم نبوة) أي خطيئة وعدم إصابة .

٣١ – الدّغل: الحقد الباطن وتمس النقائص او اختلاقها. والتغل : الافساد .

٣٢ – اخرج الخشبة من عينك أولاً ... هـذا هو النص الانجيلي وإن ذكره الجاحظ بالمعنى كعادته .

٣٣ – العضيهة: الكذب والنميمة والسحر باللسان وهو نوع من التخدير أو الغش أو التوجيه الملتوي .

٣٤ – قصبه : شتمه .

٣٥ – القبقبة : كثرة الكلام في ما لا يعني ورجل قبقاب مثل ثرثار وزناً ومعنى.

٣٦ – المرّة : القوة ، وفي القرآن الكريم (ذو مرة) : صاحب قوة .قال محمود سامي باشا البارودي الشاعر والبطل العربي المصري بمدح أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي بن أبي طالب واصف موقفه وموقف الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم منه :

قال النبي لأعطي رايتي رجلا
يحبني ويحب الله ذا الكرم

www.alkottob.com

ذا مرة) يفتح الله الحصون على
يديه ليس بفرار ولا برم
وما أتى الصبح إلا والزعيم على
جيش العدو عليّ رافعَ العلم

٣٧ – هذا المقطع من السطر الرابع حتى الرابع عشر استوقفني طويلاً وعاودت قراءته بتأن وعمق مراراً إذ اشتمل على اشارات اتخذها الجاحظ كوسيلة للتنصل .

نفذت لمغزى بعضها من ثغرة شهرتها التاريخية كقوله :

١ – واعنت على قتل المعتصم :

يعني المعتصم العباسي بن هارون الرشيد، ويظهر ان الاعانة على قتله كانت حينذاك جريمة في عين الشعب لشجاعته ونجدته لا سيما في المواقع الحاسمة التي أشار لها أبو تمام الحوراني .

٢ – وغضبت لمصرع الافشين :

وهو الثائر البوذي الذي كان يزعم لنفسه الألوهية تجسداً

أو تجلياً أو تجسيماً أو تأنساً أو انبثاقاً أو فيضاً أو سوى ذلك من الفلسفات التي كانت ولا تزال تدور في أفكار رافعي المخلوقات الى مصاف الخالق .

طبعاً الغضب لمصرعه كان – ولا يزال خطيئة – اذ امتدت ثورته الجامحة من التركستان للصين وكاد يستنفذ قوة الدولة ويشغلها عما سواه .

أما قوله : ورفت حمزة، فيعني ابن عبد المطلب في استشهاده الشهير وقص هند (آكلة الأكباد) والدة معاوية وزوجة صخر وجدة يزيد .

وأما بقية الاشارات التي أوردها الجاحظ في هذا المقطع فقد فاتني معرفة القصد منها إذ ليس لها من الشهرة التاريخية ما يساعدني على التنقيب للظفر بها .

٣٨ – تتايع : رمى نفسه دون اثبات .

٣٩ – وامق : محب .

٤٠ – لحن القول هنا، ما يكاد ينطق به الوجه حين التكلم باللسان إذ قد يقيم اللسان دليلاً على الصدق والمودة والاخلاص ولكن الوجه بتبسمه الظاهر التكلف يصرح بما كمن في الصدر ودفن في اعماق النفس .

وكثيراً ما شار الجاحظ لهذا بما قرأه في وجوه حاسديه

www.alkottob.com

فقال (وما لقيت حاسداً الا تبين مكنونه بتغيير لونه وتحوص وجهه) ولكن الامتحان يظهر حقيقته وينزع أرديته .

٤١ – السنّى : الرجل الرفيع أو جواره ، والمقصود لا يحول دون هلاكي ان يجيرني رجل رفيع المنزلة .

٤٢ – المفازة : الصحراء ، وهي في الأصل مهلكة ولكن دعيت مفازة من باب الأضداد او التفاؤل كما دعيت الجمال المسافرة قافلة (اي عائدة) ويقصد بمفازة المهلّب عفوه وحلمه .

٤٣ – صاحب الزّرق : صاحب الخدعة .

٤٤ – هذا المقطع كالمقطع ذي الرقم ٣٧ اشاره الجاحظ لما نعلم من قصص زياد بن سمية أو ابن ابيه وقصص الحجاج بن يوسف وابن العاص وابن هند وقيصر في قصة خدعة (زينب : الزباء) وحوادث الاسكندر في معركته الحاسمة التي دارت رحاها على ملك فارس. دارا: داريوس وختمها الجاحظ بما اشتهر من رقى الهند وسحر بابل .

والرقية كلمات يرددها الكاهن او العراف على احد المصابين

بمرض فيزعم المريض لشدة تسلط الوهم والايحاء انه تماثل للشفاء .

ومن أجمل ما نرى ان عبد الملك بن مروان اصيب بداء الأنسر فقال (هل من راقٍ) فأحضر له الراقي بديح ومشرع يقرأ وينفث ويتمتم بكلمات كالطلاسم .

قال عبد الملك احسست بالشفاء فقلت يا بديح اكتب لنا هذه الرقية خشية ان يعاودنا هذا المرض ليلا فاجاب : عجل بجائزتي ، وما ان اخذ بديح اربعة آلاف درهم حتى شرع يقهقه قائلا .

(الطلاق يلزمني أين كنت اقول :)

نبئت ان فتاة كنت اخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

اما السحر فهو عمل بالخفاء او عمل بلباقة او توجيه باللسان لما يضر وما يزعمونه من الكتابة التي تؤثر في محبة فلان او بغض فلان فلا أصل له .

حدثني صديق يدعى الشيخ أحمد بما نصه :

طرقت بابي امرأة وقدمت ليرة طالبة سحر تسيطر به على زوجها وما ان حاولت اقناعها بأن هذا فن لا أصل له وان سيطرتك على الزوج لا سبيل لها إلا مكارم الاخلاق حتى

www.alkottob.com

أصرّت وزعمت انني احاول طلب مزيد من المال .

وهنا اخذت الليرة وتناولت قلماً ووريقة وكتبت ما يلي :

(الذي يصلح يصلح حاله والذي يفسد يفسد حاله ، الشيخ احمد اخذ مصاري يشتري خبز لعياله) .

ثم ناولتها (السحر الوريقة) وذهبت الى حيث ..

٤٥ – هذا المقطع من (ان الكلام .. حتى من سَلِم) جيد المعنى ولكن ليس متناسبا مع السياق ويظهر انه دخيل .

٤٦ – بهذا المقطع اشارات لحوادث وأعلام ليست شهيرة وللقارىء ان يلحقه بمقطعي ٣٧ و٤٤ اما كلمة (ستبديز) التي لم اعثرلها على معنى فتذكرني بالشيخ التركي الذي اخذ يفسر آية (والسماء ذات الحبك) قائلاً :

السماء ، هي السماء ، وذات بمعنى صاحبة ، أما الحبك فلا نعرفها نحن ولا انتم ! .

٤٧ – في القوم وكال ، أي يتكل بعضهم على بعض فتضيع أمورهم وتفسد خططهم .

٤٨ – البخاتي نوع من الجمال ناتج من أب عربي وأم فارسية وهو نوع شديد القوة سريع الرمل .

٤٩ – الكندرة (بفتح الكاف) مكان يجثم به البازي ليرتفع عن الأرض يعني بذلك المكان الذي يأوي له البازي أو يسقط

فيه حين يصيبه الوهق ، وهو حبل يرمي به عنق الدابة فيطرحها ، يقال (اوهق فلان نفسه : رماها بالوهق) أي أهلكها ودهورها .

٥٠ – احتجن المال الذي بين يديه احتفظ لنفسه بشيء منه .

٥١ – عجم العود : كناية عن التجربة والاختيار كما مر .

٥٢ – لعله سقط (ما) والأصل (لعلة ما) يحسد عليه .

٥٣ – كذا في الأصل ولعلها إذا اعطى .

٥٤ – لعلها جهة أو قصبة .

٥٥ – المعلّس والمطور بمعنى واحد ، يعنيان المجرّب الخبير .

٥٦ – النوكى الحمقى .

٥٧ – النقريس الدليل الحاذق يعني هنا العلامة المدقق .

٥٨ – بياض في الأصل بمقدار كلمة .

٥٩ – الرّبوض : القرى الكبيرة ويقصد هنا سكانها .

www.alkottob.com

فهرست الكتاب

	صفحة
مقدمة	٥
فلسفة المعاد والمعاش	٢٣
كتمان السر وحفظ اللسان	٦٣
فلسفة الجد والهزل	٩٥
فلسفة فصل ما بين العداوة والحسد	١٣٩
شرح الكلمات	١٧٣

AL-MOSTAFA.COM

www.alkottob.com